أيام الجفاف

يوسف القعيد

□ □ □ □ □ □

اليوم الأول ٤

اليوم الثاني ٤٢

أيام الجفاف ١٤

اليوم الثالث ٥٨

"وفيه يصل السيد/ خلف الله البرتاوي خلف الله، إلى مقر عمله الجديد، ويستلم عمله مدرسا بمدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة"

- 1 -

الرزيمات.

حوش عيسى ٥ كيلومتر، أبو المطامير ٩ كيلو متر، دمنهور ٢٣ كيلومتر، كفر الدوار ٩٣ كيلومتر.

الرزيمات.

مركز حوش عيسى، محافظة البحيرة.

نزلت من الأتوبيس عن كوبري مرتفع، تحته مصرف مياه راكدة، على مرمى البصر تنام المجموعة الصحية، في بطن الجسر العالي سرت قليلا، في يدي حقيبة صغيرة، فيها (بيجاما وفوطة وصابونة) وأدوات حلاقة وفرشاة أسنان وبعض السندوتشات، في جيبي بعض النقود، وخطاب التعيين.

الندى تراب الأرض مبلل بقطرات الندى، أشجار الجازورين والكافور الرصاصية اللون، تدمع قطرات اللامعة تحت أسلاك الشمس الذهبية، تخرج ذرات البخار الأبيض من أفواه الذين يتكلمون في الحقول، تتصاعد من

المصارف والقنوات والترع. السماء تمتد فوق الرأس صافية، يندا ح فيها فراغ صباحي عذب.

مر على ساعي البريد، وكان يرتدي حلة رمادية قديمة، يركب دراجة، يربط آخر بنطلونه بأستك أبيض كي لا يتلوث من الدراجة، لا يسير في خط مستقيم، يحلو له بين الحين والآخر، أن يعبر بدراجته من الناحية اليسرى إلى الناحية اليمنى من الطريق، ويحلو له أن يترك مقود الدراجة، ويتركها لفترة ما، تسير بمفردها، ألقي على تحية الصباح، رددت عليه باقتضاب.

الواقع أن الرزيمات ليست قرية، بل هي عزبة كبيرة، تبعد عن محطة الأتوبيس الذي نزلت منه بحوالي ثلاثة كيلو مترات، وعندما سألت جاري في الأتوبيس، عن المسافة بين المحطة والبلد، اتسعت مساحة البياض في عينيه، وقطب، ولمس جبهته بأصابع يده اليمنى، وحسب وغير، وراجع نفسه وحرك أصابعه، وقال لي: (دي بسيطة، فركة كعب يعني كام متر كدا يعني).

والطريق بين المحطة والعزبة تظلله من الجانبين الأشجار العالية، والرزيمات تسمى هنا البلد، لكونها أكبر من

باقي العزب المجاورة، وتوجد بها المدرسة ومكاتب الإصلاح الزراعي، وسرايا الأميرة سميحة.

نظرات الفضول تلاحقني من كل من يقابلني، أو يمر بي، لم أسأل أحدا، فالوصف الذي ذكره لي أحد موظفي المديرية في دمنهور، كان مضبوطا. في الخامسة صباحا، استيقظت من نومي. أيقظتني أمي. ولا أذكر أنني نمت هذه الليلة. فلقد قمت في أمسية ليلة الأمس بجولة واسعة في مدينة المنصورة، وتمشيت حتى طلخا. وعندما عدت، كان المساء قد حل، وتغيرت ألوان الأشياء. وقفت في الحارة طويلا. عدت إلى المنزل، أخذت حماما، دعكت جسمي جيدا بالصابون، وأعددت حقيبتي.

لم أتناول طعام العشاء، بقيت في سريري حتى الساعات الأولى من الصباح، دون أن أنام، أحسست أن تلك الليلة، ليلة لا تحدث في العمر كله إلا مرة واحدة، فغدا، وللمرة الأولى في حياتي، أسافر إلى بلدة لا أعرف عنها إلا مجرد وصف في ذهني، وأترك منزلي، وغدا أستقبل حياتي العملية، كمدرس بوزارة التربية والتعليم.

في الطريق إلى العزبة، لا تبدو السماء من فوق رأسك، إلا من خلال أوراق الأشجار، كمزق صغيرة، وعلى الجانب الأيمن، مصرف صغير، وعلى الجانب الأيسر، حقول مترامية الأطراف، والرزيمات تبدو على البعد، تغوص في داخل أشجار الكافور والجازورين، فلا يبدو منها شيء تماما، سوى مدخنة عالية، وبعض المباني المتناثرة، وبرج للحمام.

في وسط هذا الصمت الصباحي، تذكرت مدينتي المنصورةكل صباح، شارع العباسي الطويل، الإفطار في المنزل، الخروج، الذهاب إلى المعهد، دعوات أمي، مشاغبات أختي الصغرى، صمت أبي. حديث أمي كل صباح عن الجيران، والحارة والعطفة والشارع الكبير. زملاء المدرسة، الشوارع المزدحمة، السيارات، الفتيات، اللحظات المختلسة من عمر الزمان، الكلمات الباهتة المعنى، العواطف المترهلة. فكرت في حجرتي الصغرى، التي تطل على آخر عطفة أغا، البلاط المضلع، مياه الاستحمام، رائحة البخار، الفجوات بين بلاطه وأخرى. أحسست بنوع من الألفة، بسيط

وساذجة، للطوب الأحمر والأسمنت والحديد والخشب الذي تتكون منه شقتنا الصغيرة.

صحوت من نومي متعبا، زرقة خفيفة تطل علي من خلف النافذة، غسلت وجهي، لم أتناول إفطاري، سلمت على أمي وأختي الصغرى وأخي، دخلت حجرة نوم والدي، صافحته، قبلت يديه، بدت لي، وأنا أودعه، تجاعيد الزمان واضحة في وجهه. على باب الشقة، صافحت أمي مرة أخرى، قبلتني، نزلت مسرعا.

- (خلي بالك من نفسك يا خلف الله).

لم أرد، لابد أن الجيران يسمعون هذه الكلمات الآن، وهم ما زالوا في حجرات نومهم.

- (ابعت لنا جواب أول ما توصل)، ربنا يوصلك ويرجعك بالسلامة.

سرت بسرعة، مررت بشارع العباسي، وشارع ٣٢ يوليو، ودار ابن لقمان. في المحطة، قطعت تذكرة من المنصورة إلى دمنهور. في طنطا، غيرت القطار ركبت قطارا آخر قادما من القاهرة، ذاهبا إلى الإسكندرية، نزلت في دمنهور. سألت عن موقف أتوبيس حوش عيسى، أرشدني

أحد الناس إليه، سرت في شارع المعهد الديني حتى آخر شبرا، وصلت إلى محطة الأتوبيس، سألت عن الأتوبيس الذاهب إلى الرزيمات، قيل لي أن أنتظر على الرصيف الثالث من جهة اليمين، وبعد وقت لم أحسبه، حضر أتوبيس مكتوب عليه دمنهور، الكوم الأخضر، كفر الدوار، عرفت أنه ذاهب إلى الرزيمات، ركبته، نفضت التراب من فوق آخر مقعد فيه من ناحية اليسار وجلست عليه، ووضعت حقيبتي بجواري، بعد نصف ساعة تحرك الأتوبيس، وعندما حضر إلى الكمساري أعطيته عشرة قروش، وطلبت منه تذكرة إلى الرزيمات، نظر إلى الرجل بتساؤل، خفضت بصري. أعطاني تذكرة إلى الرزيمات، وقرشين ونصف. وطلبت منه أن يدلني على الرزيمات حال وصولنا إليها؛ حيث إنني غريب.

- (ما هو باين عليك).

ثم تساءل:

- أنت رايح لمين هناك.
- أنا معين مدرس في مدرستها.
- أهلا وسهلا.

ويبدو لي الناس هنا طيبين، بسطاء، سريعي التعارف، فلقد أقبل علي، وحدثني كثيرا، وعلى الرغم من التعب والإرهاق، والرغبة في أن أغفو قليلا، جلست خلف النافذة متنبها، ونظرت إلى كل الأشياء، وسمعت كل الأصوات، ورحت أمسح العالم أمامي بنظرات تشي بحب الاستطلاع.

- الرزيمات، الأستاذ اللي رايح الرزيمات.

هببت من جلستي، نزلت بسرعة، خوفا من أن يتحرك الأتوبيس، ولكن البطء الناتج عن شكل الحياة هنا، وهو سمة كل شيء، توقف الأتوبيس تماما، ونزل منه السائق، وملأ (صفيحة) معه بمياه من مصرف للمياه الراكدة، وفتح مقدمة السيارة، وراح يصب فيها الماء ببطء، أما المكان الذي نزلت فيه فهو يسمى الرزيمات المحطة. شكرت الكمساري، الذي نزل هو الآخر، وراح يتمشى على النجيل الأخضر، وسرت.

لقد أصبح هذا الكمساري، فيما بعد، واسمه فتوح، صديقا لي، وفي البداية، كان يحضر لي ما أحتاجه من دمنهور. وبالتدريج، أصبحت أطل على الحياة خارج

الرزيمات من خلاله، وكنت بمجرد أن ألقاه، أسأله السؤال التقليدي: (إيه أخبار الدنيا؟) فيحكي لي كل شيء في كلمات باهتة، والسيارة واقفة، والسائق يسقيها أو يبول بالقرب منها.

عندما وصلت إلى الرزيمات البلد، سألت عن مكان المدرسة، أجابتني سيدة متوسطة العمر، بلهجة عربية، وكانت تلف وسطها بشال ثقيل، وتغطي وجهها بطرحة سوداء: إن كل هذه البيوت، وأشارت إلى العزبة، مساكن. وإن المكان الوحيد الخالي، هو هذا القصر وأشارت إلى مبنى ضخم، تفوح منه رائحة القدم، وتحيط به الأشجار من كل ناحية على شكل مربع، كأنها حرس ليلي، ثم سارت المرأة في طريقها.

اتجهت إلى القصر، وكانت كل أبوابه ونوافذه مغلقة، وهو بني على مكان مرتفع عن سطح الأرض، ويؤدي إليه سلم عريض من الرخام الناصع، توقفت أمام أول درجات السلم. مسحت أركان المكان الأربع بنظرة يقطر منها التساؤل والحيرة. برز من وسط الأشجار المحيطة بالقصر شخص في يده فأس، وفي يده الأخرى، ديدان طويلة حمراء،

عرفت عندما اقترب مني، أنها طعم يستخدم في صيد السمك، سألته عن المدرسة التي هنا، قال لي وهو في نفس موضعه.

- انده بس وقول يا عبد الغني. وعندما بدا علي التردد والخجل، من فكرة رفع صوتي، قام هو بهذه المهمة نيابة عني، ولما لم يجد أي رد، صعد درجات السلم الثلاث عشرة[1] وطرق على الباب الكبير. وبعد وقت، فتح الباب، وخرج من الداخل رجل طويل، يرتدي جلبابا مقلما، وطاقية من الصوف الأزرق الغامق، وشبشبا، وعلى وجهه بقايا نوم.

قال له الرجل:

- اللفندي دا عايزك.

وقبل أن أنطق فوجئت به يقول:

- أنت لازم سيادتك الأستاذ خلف الله البرتاوي.

حمل هززت رأسي دليل الموافقة، نزل الدرجات بسرعة، تقدم إلي، صافحني بحرارة كأنه يعرفني منذ سنوات، حقيبتي وهو يقول:

- اتفضل ما هي دي المدرسة.

---

١) عرفت عددها من خلال صعوده البطيء.

سألته ونحن نجتاز الردهة إلى القصر، عن الأستاذ الناظر، والزميلات والزملاء، وكنت قد تصورت، منذ تسلمي خطاب التعيين، والذي ورد لي بالبريد المسجل، أنه ما دامت المدرسة مشتركة، فلابد من وجود مدرسات، وقطعا بعضهن آنسات، ومنيت نفسي ساعتها بالكثير، قصة حب، زيارات لدمنهور، لقاءات مبللة بالشوق، كلمات ملتهبة، عواطف حارة، وقبل، وخلافه.

لكن مفاجأتي مذهلة، حين أخبرني أن المدرسة من ذات الفصل الواحد، وأنه لا يوجد فيها سواه، فهو الفراش والخفير، وأنها لم تصبح مدرسة بعد، وأنه باقي على افتتاحها بالشكل الرسمي، قرابة شهر، وأنني أعتبر المدرس الوحيد فيها، وأنني سأقوم بعمل الناظر والمعاون والسكرتير وأمين العهدة.

قال عبد الغني، ونحن نتوقف في إحدى الصالات، أنه يستحسن أن يناديني من الآن بحضرة الناظر، وأن أُقدم

إلى كل من في العزبة على أساس ذلك.

لم أرد عليه بكلمة واحدة.

-2-

قال لي عبد الغني، وهو يصنع لي الشاي. بعد أن تناولنا، أنا وهو طعام الغداء، علب سلمون وسلاطة، تكفل هو بإحضارها من حوش عيسى، على نفقته، وعندما حاولت أن أساهم في ثمن الطعام، رفض ذلك، واعتبرها إهانة لـه، وقال وهو يبتسم في إحساس متورم بالذات، أن هذه الأكلة عزومة سريعة، وإن كانت لا تناسب المقام.

قال عبد الغني، بكلمات بطيئة، وبصوت أقرب إلـى الهمس، كمن يفضي لي بسر من الأسرار: إن هذه السرايا بنيت من زمان مضى خصيصا للأميرة سميحة ابنة السلطان حسين كامل، وهنا توقف عبد الغني قليلا، وأخرج من جيبـه محفظة جلدية قديمة، فتحها بعناية، وأخرج من جيب داخلـي لها، قطعة من ذات القرش صاغ، مثقوبة من المنتصف تماما، مكتوب عليها اسم السلطان حسين كامل، قدمها لـي، تحسستها بيدي، وكانت قطعة فضية قديمة، متآكلة الأطراف، باهتة المعالم، شبه ممسوحة، تأملتها وأعطيتها له.

قال عبد الغني، إن الأميرة سميحة، باعت هذه السرايا إلى ماتوسيان(٢) صاحب شركة الدخان المعروفة، وسميت العزبة بعد البيع، باسم عزبة ماتوسيان، وان ظلت السرايا، تسمى باسم سرايا الأميرة سميحة.

والعزبة مساحتها أربعمائة فدان، من أجود الأراضي في الناحية، وقد آلت ملكيتها إلى الإصلاح الزراعي، وسميت بعزبة الرزيمات، وإن كان لا يملك تفسيرا مقنعا لهذه التسمية

الأخيرة(٣). وقد لاحظت فيما بعد أن بعض الناس هنا، يسمون هذا المبنى القصر، وهم الذين عاصروه من قديم، والبعض

الآخر يسمونه السرايا، وهم الذين أتوا إلى هذه الناحية حديثا، وفي كل مرة، كنت أسمعهم يقولون عنها السرايا، وتنكسر نظراتي المرتعشة على لونها الأصفر الفاتح، كانت نفسي تزداد انقباضا، وتسرع دقات القلب، ويجف الحلق.

---

٢) نطقها هو مستيان.

٣) عرفت فيما بعد، أنها سميت بالرزيمات، نسبة إلى قبيلة عربية، سبق

أن أقامت بها في الزمان القديم.

وكل الفلاحين في عزبة الرزيمات، والعزب المجاورة، إما أنهم من عائلات عاشت هنا في أيام الأميرة، وأيام ماتوسيان، وهم من عرب الصحراء الغربية، قادمون من ناحية أبي المطامير، أو أنهم فلاحون فقراء، نازحون من محافظات أخرى.

قال عبد الغني/

- بالتحديد، يا خلف الله أنفدي، كلهم من محافظة المنوفية.

وراح يعدد أسماءهم، وحرفهم، مردفا كل اسم، بما يراه مناسبا له من الصفات.

شربت الشاي، وددت أن أغفو قليلا، تذكرت أنني أصبحت موظفا، وأن هذا هو يومي الأول، وأن النوم وقت الظهيرة، يجب أن يصبح من عاداتي المحببة، ولكني فضلت أن أستمع إلى عبد الغني.

ونحن نشرب الدور الثاني من الشاي، بدأ عبد الغني، يحدثني عن نفسه، وعن حياته، قال إنه من أهل هذه الناحية، بالتحديد من عزبة مجاورة لمدينة حوش عيسى، وإنه من عائلة عربية الأصل والنشأة، وإن والده توفي منذ زمن

مضى، وإنه يعول أمه، وأختًا لم تتزوج بعد وأختًا أرملة، مات عنها زوجها في إحدى الخلافات بين العائلات هنا، وإنه تزوج من ابنة خالته، غير أن الزيجة لم تفلح، فطلقها، وكل شيء قسمة ونصيب يا خلف الله أنفدي، وإنه عمل قبل أن يهديه الله إلى هذه الشغلانة في أعمال كثيرة، لف ودار، ورست به الأمور، في نهاية المطاف.

وكانت نهاية عبد الغني، في نفس المدرسة. في صالة الرقص، والتي كنا نستعملها مكتبا لي؛ لسعتها وفخامتها، وكان ذلك قبل أن تسوء الأمور بالنسبة لي، وعلى ما أتذكر الآن، لقد قضيت في القصر عاما، أو يزيد قليلا على العام، بعد موته، كنا نجري بعض الترميمات في القصر، في سقفه. وكان عبد الغني لتصوره أن المدرسة منزلا له، يزود عامل البناء بإرشاداته، إذ به فجأة، يسقط عليه جزء من السقف، وعلى عامل البناء، فماتا على الفور. وأذكر أنني ذهبت إلى المنطقة لسؤالها عن التصرف في مثل هذه الحالة، وأنهم أرسلوا معي مستشارا قانونيا، أجرى تحقيقا واسع النطاق بخصوص عبد الغني فقط، أما عامل البناء، فلقد أرسلت شركته محققا آخر، وفي نهاية التحقيق الطويل، الأقوال

التقارير، دون المحققان، بالقلم الأحمر، الذي كنت أصحح به كراريس التلاميذ، وأوقع به على البوسطة، كتبا، كل في آخر تقريره، وبخط مائل أن الوفاة قد حدثت قضاء وقدرا، وبالنسبة لعبد الغني، أن الوفاة ليست بسبب دواعي العمل، حيث إنه، وحيث إنه.

أما أنا، فلم أخبر عبد الغني، بأي شيء عن نفسي، وعن حياتي، فقط عرف أنني من المنصورة، فهتف على الفور:

- أجدع ناس.

وفي تصوري، أنني لو ذكرت أية بلدة أخرى، طنطا أو بنها أو دمنهور مثلا، لقال على الفور: إنهم أجدع ناس في الجمهورية قلت له: إنني متخرج في كلية المعلمين منذ خمسة أعوام، وإنه نظرا لكفاءتي، استدعاني السيد المدير العام في مكتبه، المطل على شارع ٦٢ يوليو بدمنهور وحياني، وطلب لي الشاي والقهوة، وقدم لي سجائر مذهبة، غالية، من بلاد بره. ورجاني أن أقوم بهذه المهمة الصعبة وأن افتتح هذه المدرسة.

وعند خروجي من مكتبه، قلت لعبد الغني:

خرج المدير العام معي حتى الباب الخارجي للمنطقة التعليمية. نظرت قبل أن أتم حديثي إلى وجه عبد الغني، كانت مساحة البياض في عينيه قد ازدادت اتساعا، وأصبح تنفسه أكثر سرعة. وجف حلقه.

- يا دين النبي، قدها وقدود يا خلف الله أفندي.

قالها عبد الغني لنفسه فيما يشبه الهمس.

وأتى المساء..

- 3 -

حضر إلى عبد الغني، وكان الوقت مساء، أخبرني بضرورة النزول لمقابلة عدد من أهالي العزبة، ولما هممت بالنزول، أخبرني عبد الغني بضرورة ارتداء بدلتي الكاملة قبل النزول، ارتديت ملابسي، بدلة كحلية أنيقة، وقميصا أزرقا غامقًا، ورابطة عنق حمراء. حلقت ذقني، صففت شعري بعناية، أمسكت بيدي إحدى كتبي المدرسية، ونزلت إليهم، تسبقني رائحة عطر، توقفت على باب الحجرة التي كانوا يجلسون فيها.

- أهلا بسيدنا اللفندي.

ودخلت.

وقفوا جميعا، العمدة، شيخ البلد، ثم ناظر سابق للزراعة، ومعاون مكتب البريد، وأمين مخزن الجمعية التعاونية، وجدتهم يقفون على شكل صفين. وكانت ظلالهم السوداء على الحائط الخلفي، وجزء منها على الأرض، سرت بينهم تماما، كما يفعل المعزون في المصائب، صافحتهم فردا فردا، أسلمتهم يدي بلا مبالاة، تناولنا كلمات

محنطة لا تفوح منها رائحة عواطف البشر، عرفتهم بنفسي، في كلمات خجولة، سألني أحدهم عن بلدتي، فقلت لهم إنني من المنصورة.

- يعني من محافظة الدقهلية، ومحافظها هو الأستاذ..

سألوني عن حياتي، وأخبار التأميم، ومشاكل التطبيق الاشتراكي، سردت عليهم قصصا متفرقة، ونتفا صغيرة، تلك التي تكون لكل منا عادة، قصة حياته.

أما بخصوص التأميم، والتطبيق الاشتراكي ومشاكله، وتشكيل الاتحاد الاشتراكي، وحرب فيتنام، كل ذلك، لم أتطرق إليه، فمعلوماتي، في هذه النواحي، كانت معدومة تماما.

شربنا الشاي، الذي تكفل عبد الغني بعمله، ودخنا اللفائف، وتحولنا إلى جماعات صغيرة، يتحدث كل عن همومه اليومية الصغيرة، بعد أن استأذنوا وخرجوا، صعدت إلى حجرتي، شعرت بالإرهاق والتعب، إلا أن رائحة الحياة الجديدة، وما تثيره في النفس، جعلاني لا أفكر في النوم،

ولسبب لا أدريه، أجلت كتابة خطاب إلى أهلي في المنصورة إلى الغد.

وفي آخر الليل، كان القمر ساجيا، وكنا في فصل الخريف، خرجت إلى شرفة القصر. بدت لي الطبيعة وسط شحوب الخريف وسلامه الذي لا طعم له، كأنها تنام بإحدى مقلتيها، وتنفتح على الحياة والأشجار والناس بالمقلة الأخرى. وكانت السماء صافية فارغة، والأشجار وقد تساقطت من فوقها الأوراق الخضراء، وبدت الطرقات بين أشجار الكافور والجازورين والتوت وقد امتلأت بأوراق النباتات المتساقطة الجافة.

شيء واحد كان مؤكدا، ظل أثره يعيش في نفسي حتى الآن، وهو معنى السكون الأبدي العميق، سكون يصعد من الحقول المترامية الأطراف، ويهبط من السماء الخريفية الساجية.

وكان السكون ينتشر بين نتف الضوء الليلي الباهت.

"وفيه يبدأ السيد/ خلف الله الرتاوي في التعرف على مظاهر الحياة في الرزيمات، ويدخل في دورة الخريف والشتاء، ويتشمم رائحة الليل، ويعيش صحوة النهار".

- 1 -

يقع القصر الكبير، قصر ماتوسيان، أو قصر الأميرة سميحة، أو مدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة، عند مدخل الرزيمات تماما. وحوله مربعات من أشجار الجازورين، تبدأ بمربع صغير، وتتسع بشكل مستمر. وأمام مدخل القصر، ممر موصل إلى الطريق الرئيسي. وعلى جانبي الطريق، صفان من الأشجار، كأنما قد غرست خصيصا من أجل هذه الطرق.

والقصر عبارة عن دورين، خلفه حديقة صغيرة، وبمجرد تسلمي العمل، أصلحت هذه الحديقة بنفسي، وبمساعدة عبد الغني، وزرعتها أشياء أحتاجها، جرجيرا وفجلا. في الدور الأرضي من القصر، خلف الباب الرئيسي، صالة عريضة. قيل لي: إنها كانت صالة للرقص(٤). ينفتح على الصالة، دورة مياه وحجرة واسعة، كانت تستعمل كمكتب ومكتبة، ومكان للقاء صاحبي الحاجات، وأهم ما يميز هذه الحجرة، كرسي مرتفع، مذهب، مثبت في الأرض، ويتصدر الحجرة

---

٤) جميع هذه المعلومات، عرفتها من عبد الغني.

تماما. قالوا عنه "كرسي العرش" وقيل: إن السلطان حسين كامل كان يجلس عليه بنفسه. يتصل بالصالة مطبخ صغير وطرقة توصل الصالة بباقي القصر.

وفي آخر الطرقة حجرتان، قيل: إنهما حجرتا نوم، ملحقا بهما دورة مياه وحمام به بانيو. أمام الحجرتين سلم موصل إلى الدور الثاني وفي الدور الثاني شرفة واسعة، كانت الأميرة سميحة تتناول فيها طعام العشاء في الليالي الصيفية، وكانت تجلس فيها حتى ما بعد منتصف الليل، وضوء القمر الفضي، ينسكب على المكان، كأنه وشاح. في الدور الثاني حجرتان للنوم، ملحقا بهما دورة مياه وحمام، ثم لا تجد إلا السقف، وهو سقف مقوس على شكل جمالون.

قررت أن أنام في الدور الأرضي شتاء، والثاني صيفا. وفي البداية، واجهتني مشكلة الأثاث، فلم تكن معي نقود لشراء أي شيء. غير أن عبد الغني تكفل بحل هذه المشكلة. أحضر لي دكتين من دكك التلاميذ، وضعهما بجوار بعضهما. وفرش فوقهما معا مرتبة، قال: إنه أحضرها من منزله، وبطانية، وأصبح بذلك لي سرير صغير، ولم تكن هناك من متاعب، سوى ذلك الصوت الذي كان ينبعث من

الدكك إذا تقلبت في فراشي أثناء النوم، ومن المتاعب الأخرى، أن دورات المياه والحمامات لم تكن تستعمل لأن الطلمبة التي كانت تمد القصر بالمياه قد سطا عليها اللصوص عقب تسليم القصر مباشرة، وكانت هناك امرأة تحضر إلينا المياه من طلمبة شيخ البلد. الأمر الآخر، هو الإضاءة، والليل هنا ثقيل الخطى، معفر الجبين. فلقد قيل لي أن ماكينة النور قد تعطلت منذ سنوات، واستعملت لمبة جاز نمرة عشرة، هي نفس اللمبة التي كان يستعملها عبد الغني.

في يومي الثاني هنا، حضر إلى مفتش القسم، أفهمني كل ما هو مطلوب مني، وبناء على تعليماته، قمت بكتابة إقرار تسلم عمل لي وحررت لي استمارة ماهيات لي ولعبد الغني، وأرسلت إلى دوار العمدة في طلب كشوف بأسماء الأطفال البالغين سن الإلزام، واتخذت لنفسي مكتبا في صالة الرقص. طلب مني المفتش أن أُكون لنفسي شخصية، وأن أستعدلمواجهة كافة المشكلات، وحذرني من ناظر الزراعة السابق. وطلبت منه أن يبقى معي لتناول طعام الغذاء سويا، ولكنه اعتذر. أوصلته إلى محطة الأتوبيس، تمنى لي التوفيق

في حياتي العملية الجديدة، وقال إنني أذكره بنفسه أيام أن كان مدرسا صغيرا.

عدت إلى المدرسة. عينت مكان فصل التلاميذ، كتبت عليه لافتة بخطي المتعرج، وعينت مكان المخزن، وكنت أود أن أطلب من عبد الغني أن ينام في حجرة أخرى، غير الحجرة التي اخترتها لنفسي، مراعاة لأصول العمل، وتمشيا مع طبيعة علاقة الرئيس بالمرءوس، ولكنني لسبب أو لآخر. لم أجرؤ على طلب ذلك منه. فقد طلبت منه أن يدبر لي معيشتي؛ إذ إنه من غير المعقول أن أظل عالة عليه. أخبرني أنه سيشتري لي كيلة ذرة من السوق، وخمسة كيلو فينو من الدكان، وستقوم أخته بخبزهم لي، فذلك أضمن وأوفر، وأما باقي الأشياء فستكون مناصفة بيني وبينه، أراحني حقيقة أنه لم يطلب مني نقودا، وأفهمني أنه سيصرف والحساب في أول الشهر إن شاء الله.

نزلت إلى الفضاء الموجود أمام المدرسة، اخترت زاوية منه لتكون فناء، يقف فيه التلاميذ في طابور الصباح. أرسلت خطابا للمنطقة التعليمية، أطلب فيه لافتة كبيرة، ملفتة للنظر، باسم المدرسة، مكتوبة باللون الأبيض على أرضية

سوداء؛ كي تعلق على واجهة القصر. طلبت أيضـا سـلفة، ودفاتر أميرية، وأوراقًا بيضاء وكربون وكراسات تحضـير وأدوات ترفيه ووسائل إيضاح وأدوات رياضـية. وأرسـلت طلبا لنقابة المهن التعليمية، لاستخراج كرنيه عضوية النقابة خاص بي.

تطـل وفي الثانية بعد الظهر تماما، صعدت إلى حجرتـي. غيرت ملابسي، ورحت أنظر من نافذة غرفتي، التي على الناحية البحرية، وكانت تصعد إلى من الأرض، نسمات هواء لينة طرية، مثقلة برائحة الخصوبة، ونامـت نظراتـي على الحقول الواسعة، وتداخلت الأمور في ناظري، فتاهـت الأشياء وتكسرت ملامحها.

وظلت واقفا في مكاني.

في انتظار أن يحضر عبد الغني طعام الغذاء.

- 2 -

بعد أن تناولنا طعام الغذاء، وشربنا الشاي، قمت فغسلت يدي وقدمي، وغسلت شرابي(٥)، واستلقيت على سريري، وسألت عبد الغني أن يعرفني على باقي الموظفين

الغرباء هنا.

- (موظفين مين يا أستاذ؟)

قال عبد الغني.

قلت له، وأنا أحاول أن أتذكر، ناظر الزراعة السابق، عمي فتح الله، ومعاون مكتب البريد، وأمين مخزن الجمعية التعاونية، وطبيب المجموعة الصحية، وباقي الموظفين، قال لي عبد الغني، إنهم جميعا هنا، منذ زمان مضى، وقد انقسموا بعد هذه الفترة إلى فريقين، منهم من تزوج من بلاده، وأحضر زوجته، واستأجر لنفسه مسكنا وعاش فيه.

والسكنى هنا عبارة عن منزل من بابه، سافر صاحبه كي يعيش في المدينة، وعلى الأخص مدينة كفر الدوار،

---

٥) طلبت مني أمي ذلك، وألحت في الطلب، مراعاة لظروف

الاحتكاك المباشر بالناس.

يعمل هناك غفيرا أو عامل نسيج أن أسعده الحظ، أما الأعمال الكتابية، فالباب دونها مغلق؛ لعدم معرفتهم القراءة والكتابة، والمنزل يؤجر عادة بمبلغ صغير، خمسين قرشا في الشهر، ولا تدفع كل شهر، ونما كل ستة أشهر، أو كل عام حسب عدد المرات التي يحضر فيها صاحب المنزل إلى بلدته للزيارة والسلام والسؤال عن الحال، ورعاية مصالحه، كأرض مؤجرة، أو محراث لم يبعه بعد، أو نورج تسلّفه أحد الجيران ونسيه عنده، أو نصف ساقية عليه خلاف.

وأهل العزبة، يقولون عمن يسافر إلى البندر إن من يترك داره، ينهد شرفه، ويقل مقداره، والغريب أنه عند حضور أحد الذين هاجروا ناحية المدن، فإن أهل العزبة يعانقونه، ويبدون له أقصى درجات الود، ويقضون معه ليالي لن تحسب من العمر، في حديث مبلل بالأسى، مثقل بالوجد عن البندر.

قال لي عبد الغني: إن هناك من الموظفين، من صاهر إحدى العائلات المعروفة في الناحية، وهذا ما حدث بالنسبة للذين تعرفت بهم بالأمس، أما الدكتور، فرغم أن المجموعة الصحية، قد تم الانتهاء من بنائها، منذ عامين، إلا أن الدكتور

لم يحضر حتى الآن. ويصل مع معاون مكتب البريد، خطاب بتعيين دكتور، وينتظر الناس هنا، ويقف كل فرد في العزبة، لدى سماعه للنبأ، ويرفع سبابته اليمنى، يضعها على رأسه، ويتذكر متى مرض آخر مرض، وكيف عولج من هذا المرض. من داخله أحد اللفندية، قيل: إنه الدكتور، ومعنى أن ينتظر الناس هنا قدوم الدكتور، أن يحاول كل شخص أن يرسم في خياله صورة محددة له قريبة من البندر، ويحاول أن يوهم نفسه، في فراغ هذه العزبة، أنه سبق أن رأى الدكتور بشخصه، وكان جالسا، والوقت شتاء، يدخن النرجيلة في مقهى بشارع المديرية الفخم، ويهمس لزوجته، وهي الوحيدة التي يمارس عليها كل سلطاته: إن الدكتور الجديد، والذي لم يحضر بعد شديد الشبه بابن خال عمه، المقيم في الإسكندرية، في شارع الزهور بحي الحضرة، ثم يهمس لنفسه: حكمته، يخلق من الشبه أربعين.

الأيام تمضي، والشهور تمر.

ولم يحضر الدكتور بعد، وكل من يقابل معاون مكتب البريد، يسأله:

- (أمال فين الدكتور يا عم).

وينطلق معاون مكتب البريد، في شرح طويل لمشاكل العصر، البيروقراطية، الوساطة، الجيل الجديد الناعم من الموظفين الذي يكره العمل في الريف، ويسأل الرجل، بعد كل هذا:

- أنا بأسألك عن الدكتور، أنا مالي ومال دا كله؟

ويستمر الحال إلى أن يصل خطاب تعيين آخر، بريد حكومي، صادر من، فيه إلغاء لتعيين الدكتور الفلاني، وبمجرد أن يتم تعيين أطباء جدد، سيعين طبيب على الفور. وهكذا.

- لغاية دلوقتي، يا خلف الله أفندي.

قال عبد الغني.

أما ناظر الزراعة، فبعد إحالته إلى المعاش، ماتت زوجته الأولى، أم أولاده الكبار، تزوج من صبية صغيرة. سافر وأحضرها من بلاد بعيدة، واستأجر خمسة أفدنة من أرض الإصلاح. وبقي في العزبة، يرعى أرضه، ويعلم أولاده، ويحرس زوجته الشابة، ويداوي نفسه بنفسه من مرض السكر، وتصلب الشرايين.

ومعاون مكتب البريد، من الكوم الأخضر، ويحضر كل يوم إلى هنا بدراجته(٦)، وأمين مخزن الجمعية التعاونية: واسمه صموئيل.

- صماويل أفندي، دا نصراني، وجاب جماعته وعياله معاه هنا.

قال عبد الغني. قال أيضا: إنه استأجر بيتا، ويشاهد كثيرا، مرتديا جلبابا من الزفير الأصلي، وعليه جاكتة قصيرة، وفي قدميه شبشب، يلعب السيجة مع شباب العزبة، ساعة العصاري.

أما في الليل، فله سهرات أخرى: مع العمدة وشيخ البلد، يقال والله أعلم: إنهم يلعبون الورق، ويدخنون ويشربون، ورئيس مجلس القرية، محام شاب، من أكبر عائلة هنا، عاد من دمنهور، وكثيرا ما يستخدم نفوذ عائلته في حل مشاكل عمله الكثيرة.

---

٦) حاول عبد الغني، عن طريق إشارات يديه ولسانه، أن يقول لي: إن المسافة من هنا، حتى الكوم الأخضر، فركة كعب، ولكني أسكته، قبل أن يقول أي شيء.

قال لي عبد الغني: إن زوجة رئيس القرية، موظفة في دمنهور، وإنه يسافر إليها يوم الأربعاء، من كل أسبوع، ولا يحضر إلا يوم السبت، ويقول الناس هنا، خاصة غفيره الخاص، وفراش مكتبه: إنه يخاف من الست، ولا يستطيع أن يشيل عينيه فيها، ويعمل لها ألف حساب.

الحقيقة، أحسست بعد كلام عبد الغني، الذي امتد من بعد الغذاء، حتى نزول الليل، بما يشبه الاختناق، شعرت بأن هناك يدين تحيطان برقبتي، أنني كالغريق، أطلب النجدة ولا من مجيب، وأدركت أنه لا أمل لي، في قيام أية علاقة ودودة مع أحد هؤلاء الموظفين، ولكني قررت، رغم هذا، أن أقوم بنفسي، بمعرفة كل شيء هنا.

وليكن ذلك من الغد، همست لنفسي.

***

- 3 -

نزلت إلى حجرة مكتبي، كنت أرتدي بيجاما جديدة، جلست على المكتب، حاولت أن أكتب خطابي الأول إلى أهلي، فردت أمامي ورقة بيضاء مسطرة، أمسكت بالقلم في يدي، كتبت في أعلى الصفحة: بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين. الرزيمات بحيرة في مساء يوم، ثم توقفت تماما.

واحترت، ماذا أكتب، هل أكتب والدي العزيز، كلا، السيد المحترم والدي، أو حضرة المحترم والدنا. شطبت، مزقت الورقة، أخرجت ورقة أخرى غيرها، جلست أفكر.. للمرة الأولى في حياتي، أشعر بوجود والدي، تنبعث صورته الآن في زاوية من زوايا ذاكرتي المعتمة، تنسال جزيئات حياتنا، أمي، أختي الحلوة، أخي الصغير، نثر الحياة اليومية، وأجدني، مضطرا لأن أقول: إنني لم أشعر نحوهم من قبل، بأية عاطفة من أي نوع، كانوا أهلي، عشت معهم طيلة أيام العمر الماضية غير أني لم أحبهم، ولم أكرههم.

وفي اللحظة التي حاولت فيها أن أكتب لهم رسالتي، بل هي أول رسالة أكتبها في حياتي، لم أعرف كيف أعبر

عن نفسي بالكلمات، وهأنذا الآن، أجلس. محاولا أن أكتب رسالتي(٧)، كتبتها بسرعة، كلمات بلون التراب، انزلقت من عقلي إلى قلمي، فدونتها على الورق.

"من طرف ابنكم المخلص، خلف الله".

هكذا أنهيت رسالتي الأولى.

وبدأت عقب رسالتي الأولى. أدخل معهم في علاقة جديدة، بدأت إدراك أن والدي قد تقدم في العمر، وأنه يشكو من روماتيزم في قدميه، وألم في المفاصل، وضعف في بصره، وأن أختي وأخي صغيران، وأنهما لابد أن يكملا تعليمهما، وأن عمل والدي، لا يدر دخلا منتظما(٨).

---

٧) لم يكن لي في الزمان الأول، أصدقاء بالمعنى المعروف، ولم أتراسل مع أي صديق. سوى رسالة كتبها لي زميل، فصيح اللسان، ونحن في المدرسة الإعدادية، أرسلتها إلى الرئيس أطلب منه صورة، موقعة منه شخصيا. كنت صغيرا، لا أجيد التعبير عن نفسي بالكلمات، ولا أشعر بأنه تربطني بهذا العالم، علاقة من أي نوع كان.

٨) يعمل والدي سمسارا بالسوق العام بالمنصورة، وحالتنا النفسيةوالصحية والمادية، وشكل معيشتنا يتحسن ويسوء حسب حالة السوق.

فكرت في الخروج، بدا لي ذل غير لائق، صعدت إلى حجرتي، لم أجد عبد الغني، لابد أنه ذهب إلى أهله. جلست في فراشي، حاولت أن أطل من النافذة، فتاهت نظراتي في مساحات الظلام اللانهائية.

وعدت إلى جلستي.

الواقع أن الوحدة، أو العزلة، حالة غريبة. لا يشعر الإنسان فيها بأي شيء، ولا حتى بالألم، ولا ينتظر الإنسان سوى النهاية، نهاية وحدته وعزلته، وكلما أمعنت النهاية في بعدها، أعمق ذلك إحساسنا بها، وانتظارنا لها، وترقبنا

لحدوثها. وكانت النهاية، تبدو في أن يحضر عبد الغني، أو أن

أنام، غير أن النوم بدا في هذه الليلة، أملا بعيد المنال، انتظرت عبد الغني، وبدأت الأشياء تفقد شكلها الحقيقي، أصبح السقف أكثر ارتفاعا، وأرض الحجرة مهددة بالسقوط في أي لحظة، والجدران الأربعة تتباعد وتتقارب في نظام ممل رتيب.

وفكرت في أن أحمل اللمبة وأنزل، ولكني بمجرد أن خطوت خطوة واحدة، بدا لي صوت القبقاب على الأرض

الخشبية، مزعجا لحد الضوضاء، وتصورت أن اللمبة لو تحركت من مكانها، فستقع الزجاجة على الأرض، وتنكسر أو تنطفئ فعدلت عن فكرتي.

واكتشف أنني خواف، وأن الظلام يطل علي بعيونه من خلال الباب، حاولت أن أفكر في شوارع المنصورة، إعلانات السينما، صوت الراديو، الأغاني الشجية، الأحاديث، مشاهداتي من خلال نافذة حجرتي لشبان الحارة ومعاكساتهم، المذاكرة، المشي على الأقدام حتى طلخا، العودة إلى المنزل.

- (سوي سرير خلف الله يا بت).

الليل في مدينتي البعيدة، حياة كاملة، سقوط الليل يعني أن نضغط بأصابعنا الناعمة على أزرار في جدران حجراتنا الصغيرة، المبطنة بالخوف، وتضاء الأنوار، الليل في المنصورة، يعني أن ينطلق الرجال إلى المقاهي، ويخرج العشاق إلى الشوارع المظلمة، وأن أفر أنا إلى الشوارع المزدحمة، تحدق عيناي في كل الأشياء.

قررت أن أطلب من عبد الغني، أن لا يخرج ويتركني بمفردي في الليل، ولكني عدلت عن ذلك خوفا من أن يعتقد أنني أخاف من أي شيء، واكتشفت في جلستي هذه، أنني لم

تكن لي أية هوايات، سوى رغبتي في متابعة النساء البدينات، وكثرة التحديق في وجوه النساء الدميمات، والمصابات بنمش أو قشور على الجلد.

وعند مشاهدتي لأية امرأة، فيها هذه المواصفات، أعثر على ضحيتي، وبمجرد أن أجدها، تتسع عيوني دهشة، يجف حلقي، تسرع دقات قلبي، أضع يدي في جيوبي، يصبح عقلي مسرحا تدور عليه حياة كاملة، ليالٍ مترعة بالوصال، لحظات حب، كلمات شوق، خصام، صلح، وأفضل السير خلف المرأة حتى أوصلها إلى منزلها، وأعود إلى حجرتي وأذكر أنني كنت دائم التجديد، ولم أحاول أن أتابع امرأة واحدة مرتين.

ولست أدري كيف أنهيت ليلتي.

وكان السكون كثيفا، لا تستطيع أكثر الأصوات حدة خدشه، يبعث إلى الأذن بصفير متصل، وكان الظلام يطل من النافذة، يحدق بعيونه. نمت، وصحوت، ونمت.

وفي آخر مرة وتقلبت فيها من فراشي، لم يكن عبد الغني حضر بعد.

"وهذه أيام لا يذكر السيد/ خلف الله البرتاوي خلـف الله، موقعها على خريطة حياته، وفيها يبـدأ رحيلـه الأول والأخير بمفرده، إلى مدائن الأعماق".

"الخميس"

بدأت في التعرف على بعض الناس هنا.

مصطفى النعاس، يقرأ ويكتب، وهذه ميزة لا يستهان بها، في الثلاثين من عمره، متزوج من امرأتين، ويناقش قضايا الساعة، ويحشر في كلماته ألفاظا باللغة العربية الفصحى، وينوي أن يرشح نفسه في انتخابات الاتحاد الاشتراكي العربي، بعد أن يتم تشكيله مباشرة، تعرفت على مقاول الأنفار، وإمام المسجد، والبقال، لاحظت أنهم يقيمون مسافة بيني وبينهم، والسبب هو وظيفتي كناظر للمدرسة، التقيت معهم في منازلهم، والذهاب إلى المنزل معناه تناول الطعام وشرب الشاي وتدخين الجوزة، وتعودت السير في طرقات العزبة وحواريها والتسليم على من أقابله، ولا مانع من تبادل كلمة أو كلمتين، وحرصت في بادئ الأمر أن يرافقني عبد الغني في كل جولاتي، ولم أشاهد أسير بمفردي أبدأ في حواري العزبة.

" الجمعة "

أرسلت لي اليوم ابنة شيخ البلد، ونائب العمدة، وزوج أخت العمدة، وهي فتاة اسمها عطيات، وإن كنت لم أرها منذ قدومي إلى هنا، سوى مرة واحدة، وعلى بعد كبير، غير أنني سمعت عنها الكثير، خاصة من عبد الغني، الذي أفهمني أنها تحبه، وتعاكسه، وترسل له الرسائل، وهناك محاولات من أهلها لجس نبضه من ناحية زواجه منها، ولكن الأيام أثبتت أن هذه التصورات، كانت أحلاما خاصة بعبد الغني، دون سواه.

أرسلت لي خلسة، مع شقيقتها الصغرى، وهي تلميذة عندي، كمية من البطاطس، وقليلًا من الأرز، وبعض السمن البلدي.

قالت لي الفتاة الصغيرة:

- أختي بتسلم عليك، وبتقول لك أي خدمة يا خلف الله أفندي.

وفي الظهر، ذهبت إلى المصلى، وهي عبارة عن مكان صغير على شاطئ الترعة، مفروشة بقش الأرز، وفي منتصفها تماما، بجوار الحائط القبلي، بروز طيني صغير، عرفت فيما بعد، أنه يقوم مقام المنبر، دخلت أحمل حذائي، في يدي. أفسحوا لي مكانا في المقدمة. جلست. وكان كل فرد بمجرد دخوله إلى المصلى، يتجه إلى ويصافحني بحرارة، ويهز يدي بشدة، ويقول لي بكلمات ممطوطة:

- بعودة الأيام، إزاي الصحة، كل سنة وأنت طيب.

وبعد قليل، تقدم لي إمام المسجد، وفي يده كتاب قديم، أعطاه لي، وأفهمني أنني ما دمت موجودا، فلأقم بالخطبة والصلاة لجزء من الثانية لم أفهم مقصده، غير أنه ألح:

- يا سيدنا الأستاذ، لا يفتى ومالك في المدينة.

قالها الإمام بلغة فصيحة.

وقفت، لا أدري حقيقة ما حدث، كل ما أذكره، أنني أثناء الصلاة بهم، أخطأت مرتين في الآيات القرآنية. وأن الشيخ أصلح لي الخطأ بصوت مسموع.

ولم أذهب إلى المصلى بعد ذلك أبدا.

"السبت"

أرسل لي اليوم، عمي فتح الله -ناظر الزراعة السابق- ابنته الصغيرة.

- (والدي بيقول لسيادتك، اتفضل اشرب قهوة).

دهشت.

- (بس لو سمحت تعالَ لوحدك.)

قالت الطفلة.

ارتديت ملابسي، خرجت، وكان الوقت أصيلا، ذهبت إلى منزله، وهو المنزل المواجه للقصر، على الباب، تنحنحت بصوت مرتفع. خرج إلى عمي فتح الله، دخلت معه، جلسنا معا في حجرة نومه، حدثني كثيرا عن حياته، ماضيه، عرفت أنه من رشيد، وإن كنت لم أدرك ذلك من وقع لهجته؛ لقلة خبرتي بمثل هذه الأمور ولعدم وجود قدرة على الملاحظة الدقيقة عندي، أخبرني بوفاة زوجته الأولى، وزواجه من فتاة أخرى صغيرة، قريبة له من القاهرة، وأن معاشه صغير، وأولاده كثيرون، وكلهم في المدارس، حتى البنات منهم، وأن الخمسة أفدنة لا تعود عليه بشيء يذكر؛

لأنه يستأجر من يزرع له ويروي ويحصد، ولا يقدر على متابعة كل الأمور بنفسه، ويتصور أن العمال يسرقون كل شيء.

قال لي: إنه مريض بالسكر وتصلب الشرايين، وإن أهل العزبة يكرهونه منذ أن كان ناظرا للزراعة، فلقد كان يقسو عليهم. قال لي، وهو يتقرب مني، وملامحه يسيل منها الانكسار والأسى، وخطوط وجهه تعطيك انطباعا محددا برائحة تنازل الإنسان، مكرها لا بطل، عن كبريائه، وعن إحساسه بنفسه. قال لي: إنه أرسل في طلبي، من أجل موضوع صغير، يطلب مني سلفة خمسة جنيهات فقط، إلى أن يفرجها الله، ارتعدت، انسالت تحت إبطي حبات عرق لها رائحة الجلود البشرية، خفت، وكان خوفي لسببين، أولهما أنني لم يكن معي سوى قروش قليلة، والثاني، أن مرتبي الذي سأتسلمه أول الشهر، ليس ملكا لي، ولا أستطيع أن أتصرف في مليم واحد منه[٩]

---

٩) أفهمتني أمي، نيابة عن أبي، صباح حضوري إلى هنا، بل طلبت مني بحزم أن أعد كشفا بكل قرش أصرفه، في أي وجه كان،

اعتذرت له بكلمات باهتة، حركت يدي دلالة على الاستسلام لقوة قاهرة، تغتال أعظم ما فينا، وتدفنه في قبور بعيدة، نبتت حبات عرق لزجة، مالحة الطعم على جبيني، قمت، استأذنت، وفي الصالة، لمحت زوجته، فتاة رائعة، وقال لي عمي فتح الله: إنه سينتظرني حتى أول الشهر.

وأنا في الطريق إلى القصر، تذكرت أن زوجته القاهرية صغيرة، وأنه في الستينات من عمره، فمنيت نفسي بعلاقة خصبة مع هذه الفتاة، ورحت أرسم كل شيء، خاطبتها في الخيال، وأحضرتها معي في حجرة نومي بالطبع. لم أتصور وجود عبد الغني معي في القصر، وتصورت مكان التخت التي أنام عليها، سريرا فاخرا، ورحت أجردها من ملابسها، وأفعل بها، ما لم أفعله في حياتي من قبل.

طاردني عبد الغني بالأسئلة، سبب زيارتي، لم ذهبت بدونه؟ ماذا طلب مني.

- أنا عارفه فتح الله، دا رجل مش كويس.

وذلك لعرضه على أبي، وكان في صوتها رنة من وجد أخيرا، ووسط التيه، قشة نجاة صغيرة، ولابد من المحافظة عليها.

حذرني عبد الغني منه، قال لي: إنه سيطلب مني سلفة في المرة القادمة، وإن طالبته بها.

- (حا يضرب عليها عوافي، وايش ياخد الريح من البلاط).

وإن ألححت عليه في الطلب، سيقول عني في العزبة، إنني حاولت أن أعاكس زوجته الشابة الحلوة، وتكون الفضيحة.

- وعليه العوض، ومنه العوض.

تذكرت أن عمي فتح الله، حذرني هو الآخر من عبد الغني، قال لي: إن لعبد الغني أختا مطلقة، بيضاء وسمينة وحلوة، وإن سمعتها ليست على ما يرام في حوش عيسى، وإن هذا هو السبب في إقامة عبد الغني الدائمة في القصر، وعدم معيشته مع أهله.

وفي الليل، تذكرت ما قاله لي عمي فتح الله، خلال زيارتي له.

قال إن هذه البلد، لم يعد منها أحد إلى بلده، وكل من يعين هنا، يقضي العمر كله فيها، تتسرب لحظات الحياة، تزحف سني حياته ببطء. قال لي: أنه علي الآن، إما أن أنتقل

فورا إلى بلدتي، حيث المستقبل والحياة السعيدة والفرص السانحة، وإما أن أظل هنا إلى الأبد.

قال عمي فتح الله: إن كل الذين حضروا، عاشوا هنا، وتغيرت حياتهم، أصبحوا جزءا من الواقع، ذابوا فيه، وكان من الصعب عليهم بعد ذلك، أن ينفصلوا عنه، أو يثوروا عليه، وقامت بينهم وبين الواقع بكل رتابته ومللـه علاقة ثقيلة على النفس.

- الحق نفسك يا خلف الله أفندي.

هكذا قال عمي فتح الله.

وفي الليل، يزحف الخوف على الجدران، ويبدو من خلال عيون الظلام، أنه يوجد خلف تلال العتمة، قدري، وأدرك أنه قد قامت بيني وبين الحياة هنا، علاقة قدرية ثقيلة.

وفي آخر الليل، أحسست أن الجدران تطبق علي، وتمتص آخر ومضة من ومضات الحياة في جسدي.

هل سأترك العزبة، وإن تركتها فإلي أين؟ وإن لم أتركها فما المصير إذن؟ هكذا رحت أسائل الليل.

" السبت"

تم افتتاح المدرسة اليوم.

كنت قد أكملت صرف ما أحتاجه من المنطقة، من كتب وكراريس، وسبورات ومقاعد وتخت، وعملت كشوٍف بأسماء التلاميذ، من سن السادسة حتى التاسعة وثلاثة أشهر، وأخبرت أولياء أمورهم، بخطابات بأسمائهم، بموعد افتتاح المدرسة، وأطلقت مناديا، قبل الموعد بأسبوع، نادى في حواري العزبة، والعزب المجاورة، ساعة الغروب:

- يا عباد الله، تقرر أن يكون افتتاح مدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة يوم السبت القادم، الموافق، والحاضر.

يمر المنادي، وهو لحاد العزبة في نفس الوقت، وقت الغروب، وتكون الحواري مزدحمة بالرجال، الذين عادوا من حقولهم وينادي بصوت مرتفع، وبنغمات جميلة. ورغم هذا، فبين الحين والآخر، يوجه إليه شخص ما سؤالاً، استفسارا بسيطاً يجيب عليه المنادي بكلمات سريعة، وبإحساس من يعرف كل شيء، ويتقاضى المنادي مبالغ بسيطة، والمناداة

تكون عن حوادث هامة، موت أحدهم، ضياع دابة، أو فقد طفل صغير، أو إجراءات انتخابية أو تغيير مواعيد الري، أو تعليمات جديدة من العمدة، أو رئيس القرية.

وفي يوم الافتتاح، حضر رئيس مجلس مدينة حوش عيسى، ورئيس مجلس القرية، مدير عام التعليم الابتدائي، ومفتش القسم، وافتتحنا المدرسة، بقص شريط أحمر اللون، عزم رئيس المدينة على المدير، وتنازل له المدير مع بسمة. ألقيت كلمات. ذهبت إلى دوار العمدة، أكلنا، شربنا، تحدثنا عن تكوين الاتحاد الاشتراكي، وغلو الأسعار، وثورة اليمن وتحولنا إلى جماعات صغيرة.

واعتبارا من هذا اليوم، بدأ الناس هنا، ينادونني بيا حضرة الناظر.

الجمعة

في هذا اليوم، يزداد إحساسي بوقت الفراغ.

فهذا اليوم، يوم عطلة، أصحو من النوم في الثامنة صباحا، أستحم، أحلق ذقني، أتناول إفطاري، وأجلس في الفراندا الصغيرة. ومعي ملقاط قديم، ومرآة متآكلة الأطراف، وأقضي الوقت في التقاط الشعيرات التي تحيط بشاربي بعناية شديدة.

وفي الظهر، أتناول طعام الغذاء، وبعد الظهر أنام، أو أظل جالسا، حاولت أن أجرب القراءة، ولكنني مللتها بسرعة، وفي الأيام الماضية، حاولت أن أجرب الصيد، صيد السمك من المصارف التي تحيط العزبة، اشتريت سنارة، وأحضرت بوصة طويلة، وقام عبد الغني، باستخراج طعم لي، وأقبلت على التجربة في حماس، غير أني، كالعادة، مللت كل شيء؛ لعدم توفيقي في صيد أي شيء من ناحية، ولعدم قدرتي على الصبر من ناحية أخرى. وحاولت أن أسافر إلى دمنهور كل يوم جمعة، ولكن ميزانيتي المحدودة حالت دون ذلك.

يبدو لي يوم الجمعة كأنه دهر بأكمله. يبدو طويلا، تمر دقائقه بطيئة قاسية، يستطيل الوقت، وما أن يأتي الليل، حتى أمني النفس بالاستعداد للغد، أحضر الدروس، التاريخ، الحصة، المادة، الموضوع، الطريقة، وسائل الإيضاح المستخدمة، أضع الطباشير على المنضدة بنظام معين، أحضر الممسحة، أكتب التاريخ على السبورة، أعد ملابسي، ألمع حذائي، أكوي رباط عنقي.

ثم أقوم بزيارات مكرورة، تتم للمرة الأولى بعد المائة، لبعض البيوت والزيارات لا تتم بمواعيد سابقة، بل يكفي أن تكون مارا أمام أي منزل، كي يعزمك أهله. ومعنى هذه الزيارة، أنني معزوم على العشاء، مهما كان وقت الزيارة. ومعنى هذا أيضا، أن عبد الغني لابد أن يكون معي في هذه الزيارات.

" الأحد "

منتصف الليل تماما.

الساعة الثانية عشرة، النجوم الساجية تنتشر على صفحة الليل، الصمت والظلام وهديل الحمام في أعلى القصر، تدق الساعة في الراديو دقات رتيبة، ينتشر الصوت، يخدش الصمت الليلي، تتلاشى الأصوات، تذوب، تبهت تضحي فاترة في فضاء الليل الواسع.

وفي كل ليلة.

يأتي فأر صغير، في ظهره خط أبيض، يخرج من جحر في الركن الأيمن، يدور في الغرفة، يأكل لقمة من الخبز الجاف، يتضخم صوت اصطدام أسنانه بجفاف الخبز، يدور في الأركان الأربعة، يتشمم خشب المقاعد، ورائحة البترول المتساقطة على جسم اللمبة، ويغرس شاربه في بقع الدهن المتناثرة على أرض الغرفة الخشبية، تبرق عيناه في نور اللمبة.

يعود الفأر إلى نفس موضعه، في الركن الذي ظهر منه، يختفي، وتكون الساعة الثانية عشرة وأربع دقائق وثلاثين ثانية.

الحقيقة أقول: إنني أحببت هذا الفأر، كانت معي ساعةقديمة اشتراها لي والدي، بحالة مستعملة، بعد أن حصلت على الشهادة الإعدادية، بجنيه ونصف، كهدية لنجاحي، غير أنني، لم أكن أتأكد أن الليل قد انتصف إلا بمجيء الفأر، ولم يحدث في أي ليلة أن أخلف موعده معي.

"الاثـنين"

مضى علي الآن، ما يقرب من عام كامل هنا.

فشلت طيلته في إقامة علاقة واحدة، مع أي فرد هنا. وذلك لأني لا أجيد التعبير عن نفسي بالكلمات، وبطيء جدا في إقامة أية علاقات مع

الآخرين(٠١). ولم أكتشف من قبل، أنني أبدو في نظر الآخرين

ثقيل الظل، وأنني أشكل عبئا بالنسبة لمن يعرفونني، وأن دائرة اهتمامي ضيقة، فلا أعرف أي شيء يذكر عن حياة الفلاح أو السياسة.

وعندما ألتقي بأحد هنا، يسلم علي في حفاوة، ويتكلم، ثرثرة فارغة، كلمات لا معنى لها، أما أنا، فإنني أشعر أمام الآخرين، أيا كانوا، بنوع أملس من الخجل والاضطراب والحرج؛ ولذا فإني أقف صامتا، أنتظر أن يطلب مني الكلام، وبمجرد أن يطلب مني الكلام، فإنني، بدون وعي مني، أمر

---

٠١) وهذا راجع إلى ارتباطي بأمي في طريقة فهمي للعالم. فأمي تتصور أن كل الناس أشرار. حساد. يسرقون الكحل من العين،

عدا أسرتنا، وأفهمتني أمي ذلك منذ أيام الطفولة الأولى.

بيدي على شعر رأسي الخشن وأمر بأصابعي، بالتحديد، بالإبهام والسبابة، على فتحتي أنفي، ثم أمر بيدي على ذقني الحليقة، أتحسس بهما بعض الحبوب النابتة من أثر الحلاقة، أتحسس جبهتي، وأتنحنح بحثا عن الكلمات.

ويكتشف الناس هنا، مدى فراغي، فينصرفون عني، ولا يكررون ذلك أبدا، وكل هذا دفعني إلى فعل أمرين، وأولهما، كثرة كتابة الرسائل إلى أهلي، كنت أكتب رسالة كل يوم لهم، وكنت أثناء يومي هنا، أبحث عن كل جديد، وأقول لنفسي بمجرد حدوث شيء غريب ونادر، هذا شيء مثير، يجب أن أكتبه لهم على الفور، وأصبحت أتتبع كل ما يحدث في العزبة. موت، ميلاد أطفال، منازعات، سرقات، سم مواشي، كي أكتبه، وكنت أسأل عبد الغني عن حياته وأهله، خاصة أخته الأرملة، مبديا حزني بسبب مصيرها، كي يقص لي أشياء كثيرة، تكون موضوعات رسائلي.

ولقد دفع هذا عبد الغني، إلى إحضار أخته الأرملة لزيارته بالمدرسة، وكي أراها فيما أتصور، وكانت جميلة حقا، بيضاء وممتلئة. وتصورت بعين الخيال، ملمس جلدها الناعم لو عريتها تماما. ورحت أجوس بيدي على صدرها

العريض، وجسدها البض، ولكني خفت، ولم أحدثه عنها بعد ذلك أبدا، خوفا مما قد يترتب على ذلك.

أما الأمر الثاني، أنني بدأت في تدوين مذكراتي، أصبحت أكتب كل ما يحدث لي، وأقوم بالكتابة، عادة، قبل النوم مباشرة، في كراسة من كراسات تحضير الدروس، أكتب فيها كل ما يخطر على البال، بشكل غير منتظم، وكنت ألاحظ أنني كنت أهتم بكتابة الأسماء والوظائف لذوي المراكز الهامة، الذين أحتك بهم هنا، رئيس المدينة، رئيس القرية، العمدة، وكيل مكتب البريد، لدرجة أنني كنت أحس بشيء من الانبهار والقشعريرة وأنا أكتب أسماءهم.

بيني وبينك، استمرأت كتابة الرسائل إلى أهلي، وتدوين المذكرات. وبدا لي أن ذلك سيبتلع كل ذرات الملل والتردد الناعمة التي تلون أيامي هنا، بلون التراب. ولا تضحك من ذلك أرجوك، فالإنسان في تصوري، ليس هو إمكانية الأشياء التي لم يكنها بعد، بل هو مجموع إخفاقاته وتعاساته، هو مقدار الأحلام التي وئدت، والآمال التي لم تتحقق بعد.

أصبح الآن من أهم عاداتي، أن أحدث نفسي كثيرا، وحديث النفس حالة لا يقع فيها إلا من خلا عالمه من كل شيء تقريبا، ولم يبق له سوى نفسه. وفي كل حديث، كنت أشرح أحداث اليوم المنصرم، أحلم، أتمنى، بل أنتقم، وأعيد في هدأة الليل، تنظيم يومي من جديد، وأحذف وأعدل كي تستوي كل الأمور.

وفي كل مرة، لم يكن من عيوبي أنني لم أكن بقادر على تقديم ردود فعل محددة وفورية، لما يواجهني به الواقع، فعندما يشتمني شخص ما، كنت أصمت، أتصنع بسمة باهتة، وأوهم نفسي في الخيال، بأن التسامح فضيلة كبيرة، وأحسن الصفات المطلوبة في هذا العصر.

غير أني في الليل، أتذكر ما حدث، أعيد خلقه، وأشعر بالإهانات، وأدرك أنني لم أكن رجلا، وأنني كان يجب أن أفعل كذا، وأقول كذا، وأقرر بيني وبين نفسي أن أغير من سلوكي، وأن يصبح موقفي أكثر حسما تجاه العالم.

وتأتي الأيام، وتوجه لي الإهانات، يتهجم على الناس، ولا أرد، وفي صمت الليل، أنقد نفسي، وهكذا. وبعد كل شيء. الصراع، الخصومات، عبارات الحب، أهمس،

قبل النوم مباشرة، هذا حسن، أن كل شيء على ما يرام. ولكن من المؤكد، أنني في كل مساء، في لحظة الغسق الحزينة، أرفع عيوني نحو السماء، تنغرس نظراتي، على المدى البعيد، في الفضاء اللانهائي الشاحب، أحسب سنوات عمري التي مضت، أعدها بفتور على أصابعي، واحد وعشرين، ثلاثة وعشرين، سبعة وعشرين.

وأطلب، في هذه اللحظة، أن يطول عمري، حتى أتمكن من فعل ما لم أفعله حتى الآن، أهمس بصوت باهت الرائحة، ليتني لا أموت هذا المساء.

ويموت كل شيء في نفسي، كل مساء.

ويتغير لون النهار، وتغوص كل الأشياء حولي في مساحات الصمت، وكتل العتمة الرمادية، وأثور من خلف نافذتي وأقرر بحماس، أنني في الغد، الصباح الباكر على الأكثر، سأفعل كل شيء، أحل كل مشاكل العالم، وأبدأ من جديد.

"الخميس"

لا أسافر إلى المنصورة، إلا مرة واحدة في الشهر، يوم الخميس الأول من كل شهر، والسبب الوحيد هو أنني، أدفع لهم في المنزل مبلغ ستة جنيهات من مرتبي البالغ عشرة جنيهات وسبعين قرشا وثلاثة عشر مليما. المهم، أن الناس هنا، يتصورون أنني أسافر في هذا اليوم بالذات، كي أقضي سهرة حمراء، أقضيها مستمعا إلى الراديو، حيث تكون حفلة أم كلثوم الشهرية، وفي هذه السهرة، كل ما لذ وطاب، خمور ونساء وشواء، وعندما واجهني عبد الغني بهذه الحقيقة، ابتسمت، وأحسست زهوا يملأ فراغي الداخلي، ولم أشأ أن أثبتها أو أنفيها.

في زيارتي الأخيرة للمنصورة، طلبت مني أمي، وأقول أمي، وأقول أمي، لأنني لم يسبق لي الحديث مباشرة مع أبي، سوى مرة واحدة، أو مرتين، وكل تفاهم بيني وبينه، يتم عادة، عن طريق أمي؛ لهذا فلقد يتحدد شعوري نحوه بالحب أو بالكراهية، وقد يرتفع حبي له لدرجة الرغبة في احتضانه، وقد تهبط كراهيتي له، لدرجة أن أتمنى موته،

ولكني في كل هذه الحالات، لم أشعر به. ولم يكن يربطنا سوى تحية الصباح، والسلام عليه، وتقبيل يده(١١) ولم أشعر في يوم ما، أنه يعاملني كابنٍ وصل إلى مرحلة الرجولة، أو
أنني كنت أنظر إليه كأب.

ما علينا، طلبت مني أمي، أن أقلل من رسائلي إليهم، وأن لا أذكر فيها إلا المهم جدا من أمور الحياة؛ لأن والدي قد تصور أنه قد حدث لي مس، عدت هذه المرة إلى الرزيمات، وأنا أتساءل، لمن سأكتب إذن، لقد قضوا على وسيلتي الوحيدة في التسلية، ولكن من المؤكد أن لكل مشكلة حلا، وأن الحاجة أم الاختراع.

حدث أثناء عودتي، أن اشتريت إحدى المجلات، وكانت فيها صفحة عن هواة المراسلة، وبالطبع نقلت أسماء الفتيات كلهن، وعناوينهن، وبمجرد وصولي إلى القصر، جلست أدون رسائلي، كتبت عشر رسائل إلى فتيات من الإسكندرية وبيروت والنجف بالعراق وشبين الكوم وطنطا. ولا أكتمك أنني قضيت الليلة كلها، أحدق في صورهن

---

١١) هكذا طلبت مني أمي، فلقد أخبرها والدي، أنه لاحظ أنني

لا أكن له احتراما، ولا أقبل يده، كلما سلمت عليه.

المنشورة، في هذه المجلة، وأن الصيغة كانت واحدة في كل هذه الرسائل، لدرجة أنني عندما شعرت ببعض التنميل في يدي، كتبت الرسائل الثلاث الأخيرة بالكربون، ومضت الأيام بطيئة، وكنت في كل يوم، أذهب إلى مكتب البريد، أسلم على وكيل المكتب، أسأله عن الصحة والعافية، أتحدث معه في أمور تافهة، نقص أحداثا يومية، ثم أسأله وأنا أحاول أن أجعل حديثي عابرا، لا أهمية له:

- اللا أنا ما ليس جوابات يا حضرة الوكيل.

- لا والنبي – يرد وكيل المكتب – ما فيش يا حضرة الناظر.

ويبتسم، وأقضي بقية اليوم في تفسير معنى بسمته، التي تشي بالخبث والدهاء وأجلس معه قليلا، كنوع من التمويه، وتمر اللحظات ثقال وفجأة.

- طيب عن إذنك يا بيه.

- ما أنت قاعد.

ويلح علي وأمتنع وأتصنع آلاف الأعذار، وأمشي، وأتصور، حال تركي لوكيل مكتب البريد، أن معاون المكتب يدرك كل شيء، وأذوب خجلا.

لم تفكر واحدة منهن في الرد علي .

قلت لنفسي، سامحهن الله، وكان عزائي، وأرجوك أن لا تضحك من سذاجتي، أنا أتصور، أن رسائلي، التي كتبتها بخط يدي، في قصري المهجور هنا. في يد فتيات حسان، في أماكن لا أحلم حتى بالذهاب إليها، وأنهن يقرأن ما فيها، ويحاولن فهمه، وعما قريب ستصلني الردود، وسأختار أنا منهن من أدوام على مراسلتها.

ولكن الأيام أكدت لي أنه لم تفكر واحدة منهن في مجرد الرد علي، وتجرعت في لحظات حزني الليلية، ذرات الانتظار المرة، وابتلعت بمفردي، كبريائي المزعوم، وشاهدت بنفسي لحظة انتصاف الليل.

وسكت.

"الأربعاء"

فتحت كتاب مذكراتي، هذا المساء، كتبت فيه، المساء هو أسوأ ما في الأمر، كتبت بعد ذلك في ذيل الصفحة المتآكلة الأطراف، عندما يخلو العالم من الأمل، فإنه لا يصلح حتى للتنفس، وكتبت ما أعذب الصمت، وما أجمله، بعودة الصمت إلى، تعود الحياة إلى شكلها البدائي، تتحلل إلى عناصرها الأولى، وهذا ما يجعلني أؤكد أن الصمت يناسب الصلاة، كلا، الصمت هو الصلاة نفسها.

الذي لم أكتبه هذه الليلة، هو أن الصمت الذي أتحدث عنه، صمت زاخر بالمرارة والانكسار، صمت تنوح فيه الرياح، صمت ناتج عن الإحساس الحاد بالهدوء، كما يحس الإنسان بالصمت الكبير الذي يرين على البحار المترامية الأطراف، والبيوت المهجورة، والمدافن التي لم يدفن فيها أحد بعد.

وكتبت.

عندما يتدهور الصمت والكتمان والانفراد إلى بلادة في الحس، وعندما تتحول الطاعة إلى جبن ورضوخ

وتنازل، فإن النهاية، نهاية كل النهايات، تبدو هي الخلاص الوحيد.

" الجمعة "

بدأت أفقد لذة مشاهدة أهل العزبة، فكل ما يحدث اليوم، هو نفس ما حدث بالأمس، وما سيحدث غدا، وبعد غد، وإلى الأبد، والناس هنا، هم نفس الناس، ينامون مع لحظة سقوط الليل، يصحون، يقضون حاجاتهم في الحقول، يغسلون وجوهم أو يستحمون في الترع والمصارف، ثم يعودون إلى منازلهم، حيث يتناولون طعام الإفطار، يشربون الشاي المر، يذهبون إلى حقولهم، وفي المساء، يعودون إلى منازلهم.

وحياة الناس، في هذه العزبة الصغيرة، كتاب مفتوح، الفضائح والزيجات، قصص العشق والغرام، كل ما يحدث، تتناقله الألسن، وعبد الغني، يحكي لي كل شيء، في هدأة الليل، ويقدم لي تفسيرا واضحا لكل الأحداث.

أصبحت أتصور أنه توجد علاقة بيني وبين كل فرد في العزبة، علاقة شخصية لدرجة أننا، عند سيرنا في حواري العزبة، نشاهد أحيانا، امرأة، أو شابا، فيقترب مني

عبد الغني، ويقرب فمه من أذني، ويهمس لي بكلمات حكاها لي في القصر عن الشخص.

- أهو دا اللي مسكوه مع بنت المقاول في غيط الذرة.

وعلى الفور أتذكر الحكاية، وحكم عبد الغني عليها، وتفسيره لها وفي العزبة، بل وفي كل البيئات المجاورة المحدودة، ما أن يحدث حادث صغير، لا قيمة له، حتى نلهث، ونستيقظ من نومنا الدائم، وفي تصورنا أن شيئا مثيرا، مدهشا، غير عادي، قد حدث. رغم أننا ندرك أننا نكذب على أنفسنا، ولكنها محاولة منا لخدش أسوار اللامبالاة، محاولة يائسة للخروج من سجن الليل والنهار، والنهار والليل.

لا أكذب عليك، ما أن يحدث أي شيء، خناقة، حريق، وفاة، قتل، طلاق، حتى تبتهج نفسي، أفرح، ياه، ما زال هناك أحياء، آدميون، يشعرون، ولكن كل شيء ينتهي، وتعود الحالة إلى سابق عهدها.

والناس هنا يعيشون ويموتون، وتمضي بهم الحياة بطيئة مع الدورات العادية للفصول وقد تحدث تغييرات كثيرة

في العالم، وتصل إليهم من الراديو، أو من أفواه الذين يسافرون كثيرا، إلا أنهم لا يشعرون بهذه التغييرات إلا ببطء شديد، لدرجة أنه مهما حدث في العالم، فإن كل شيء يتكسر على الجدار الخارجي لحياتهم، ولم يكن يسبب أي تموجات عاطفية لهم. قد تحدث الأزمات السياسية، الثورات، الكشوف العلمية، الحروب، الانتصارات والهزائم، ولكن ما علاقة كل هذا بجزئيات حياتهم الصغيرة، انتظارهم للمحصول الجديد، لهفتهم على مجيء دور المياه الذي تأخر يوما واحدا، إلحاح لقمة العيش عليهم، البحث عن قطع النقود التي لا تبقى في راحة اليد سوى جزء صغير من الثانية، في الحرث والزرع، والسهر بجوار المحصول، في جر الحياة، في محاولة الغوص حتى الأعماق في نثر الحياة اليومية، بكل تفاهتها ومللها، وهم لا يدركون أن هذا هو قدرهم، وقدري أنا أيضا.

قرب الغسق، كنت أجلس وقد ذبلت عيناي من النعاس، أتصور أنني لم أستيقظ بعد، لم أصح من سكر الليلة السابقة، حتى إنني كنت أنسى كثيرا من فرط الركود، أين أنا من الدنيا، وفي الليل، في الليالي الخريفية حيث تبتلع ذرات الضباب كل شيء، العواطف، الأحزان، كنت أغرق في

الضجر، وعندما كنت أحاول أن أتحدث مع عبد الغني، كنت أحس أن الكلمات، فقدت معالمها، تماما، كالنقود غير الواضحة المعالم، الممسوحة الكلمات، من كثرة الاستعمال.

- بتقول إيه يا خلف الله أفندي، أنت مالك اليومين دول؟

- ولا حاجة.

وكنت أكتفي بالجلوس إلى جوار النافذة، استنشق بملء رئتي هواء الليل الطري، الذي يتصاعد من النباتات الخضراء، وكانت نظراتي ترتمي على النباتات والزروع وأعالي النخيل وذؤابات الأشجار، وكان بخار الأسى، في هذه الليالي يتصاعد، جاعلا نفسي ثملة بالأحزان.

وفي آخر هذه الليالي الخريفية الباردة، كنت أشعر من خلف الزجاج السميك، أن هناك نوعا من الدفء والغنى، يملأ كل رحاب الليل، إلا حجرتي، تلك المساحة الفراغية التي تتسع كل ليلة عن الليلة السابقة، بين الجدران الأربعة، والسقف العالي، والأرض الفسيحة.

" الأحد "

انتهيت إلى نتيجة هامة.

أن أهل المدن، يتحدثون في الأماكن العامة، حيث المقاهي المزدحمة، والمقاعد المريحة في الصالونات الهادئة، في الحدائق والمتنزهات، وهم يمشون في الشوارع الواسعة، يتحدثون عن الملل ووقت الفراغ، السأم. وقد يتحدثون فوق ذلك، لمجرد الرغبة في الحديث، عن الجوع الجنسي، والعطش العاطفي.

ولكنني أؤكد، وأرجو أن تصدقني، إنهم جميعا لم يجربوا أي هذه الحالات قط، مما يدفعني إلى أن أتفلسف وأقول: إننا إما أن نحيا حياتنا، نملأها بوجودنا، أو نتحدث عنها، وأنا من النوع الثاني، الذي قدر له، مكرها، أن يتحدث عن حياته.

ويبدو لي الآن، أن العمر قد ينقضي، دون أن أفعل أي شيء، ولك أن تقاربن بين جلستي هذه، خلف زجاج نافذتي، في الدور الأرضي من قصر الأميرة سميحة، ابنة السلطان حسين كامل، وقطرات المطر تنزلق في كسل على

زجاج النافذة، أحدق في الظلام، وأشعر أنه يتسلل إلى أعماقي شيء ما، لزج الرائحة، مالح الطعم.

أجلس هكذا، كي أحسب، كم مر من الأيام، على آخر شجار قام بين عمي فتح الله ناظر الزراعة السابق وزوجته الشابة، وأحسب كم باقي من الزمن على سفري القادم إلى المنصورة، أحسبه مرة بالأيام، وأخرى بالساعات وثالثة بالدقائق، مستخدما في المرة الثالثة ورقة بيضاء، وقلم رصاص، محاولا امتصاص أكبر قدر من الوقت، وكم بيتا في العزبة سأشاهد أمامها في الصباح الباكر، مياه استحمام مثقلة برغاوي الصابون. وأحسب كم شهرا بقي؛ حتى أدون لنفسي علاوة شهرية وقدرها، وبها يصبح مرتبي كذا، أو أحسب السنوات الباقية كي أرقى إلى الدرجة الثانية، وكمن من موظفي الناحية أقدم مني، وعلى الفور، أتصور أن تحرق منازلهم، أو أن يصيب الله بلادهم بزلزال رهيب، ويموتوا جميعا، كي أرقى في العام القادم.

في نفس هذه اللحظة، في مكان آخر من العالم، ولم أذهب بعيدا في المنصورة، بلدتي، شارع العباسي، المقاهي مقفلة الأبواب والنوافذ، بخار الشاي ودخان الجوزة يوحي

برائحة الدفء، (شيش بيش، كش ملك. واحد قهوة سادة. الملك بتاعك اتحرق ارميه). أرضية الشارع المغسولة بحبات المطر، الفتيات في الشوارع، تهب نسمات الليل الطريقة، ترتفع فساتين الفتيات الجديدة، تبدو مساحات من اللحم الأبيض. الرجال العائدون إلى منازلهم، في أياديهم أرغفة يخرج منها بخار دافئ.

تلميذان صغيران، يسأل أحدهما الآخر عن موعد قدوم حملة بونابرت إلى مصر، وأسباب حملته، أمي، في شقتنا الصغيرة، تطبق ملابس أبي المغسولة، والتي جفت، تضعها تحت المخدة، تحدث والدي برغبتي التي طلبتها منها، أن يعفوني مما أدفعه لهم لمدة شهر واحد فقط، كي أشتري راديو ترانزستور، يسليني، ويعينني على قضاء أيامي في العزبة، والدي يصيح فيها، يقول لها إنه لم يكن له مصروف خاص به حتى سن الخامسة والعشرين، تسكت أمي، القطار القادم من بلدتنا، ذاهبا إلى دمياط، يذوب في الليل، يحتويه صمته الجبار. أمي ترسل لي أخي الأصغر، يشتري لهم المشبك الدمياطي، بنت الجيران تعود إلى منزلها، ترتدي

بالطو من المشمع، يقيها من المطر، تقول أمي إن خطيبها أرسله لها من الكويت حيث يعمل هناك.

وأنا جالس هنا، أفكر من خلف نافذتي، هل يوجد في هذا العالم، الواسع، الكبير، الذي لا تحده حدود، أي فرد ما، إنسان يفكر في، يحاول أن يرسم صورتي الباهتة في خياله.

وبعد تفكير طويل، أدرك أنني أعني بالنسبة لغيري من الناس، مجرد احتمال عابر، طيف، وأنني لم أحفر في خيال أحد الناس هنا، شيئا فريدا.

"يـوم مـا"

لم تكن لي امرأة قط.

بل ولا حتى فتاة صغيرة، ولا أعرف أي شيء عن جنس النساء، فقط أسمع حكايا، مشكوكًا فيها بالطبع، من عبد الغني، وكلها قائمة على أساس نظرية يؤمن بها عبد الغني، مثل إيمانه بكل ما في الحياة. تقوم هذه النظرية، على أساس تفوقه الجنسي على كل من هو أغنى منه؛ ولذا كانت كل حكاياه عن زوجة ناظر الزراعة، وابنة شيخ البلد، وأخت العمدة، وزوجة مفتش القسم، وأرملة شيخ الغفر السابق، فحمدت الله، في كل مرة، أنني لم أتزوج بعد.

حديث عبد الغني، في هذه الليلة، كانت له دلالة خاصة، فلقد تكون هذه الليلة هي الليلة قبل الأخيرة.. ففي الغد، أو بعد الغد على الأكثر، سيهجرني عبد الغني، سيتزوج، مما يدفعني إلى عدم القدرة على تصور شكل حياتي بدونه. ورحيل عبد الغني يعني جملة مشاكل؛ الأكل، الحياة، في القصر، الليل الشتوي الطويل، الوحدة.

بعد غد يرحل عبد الغني، وكبريائي يمنعني من أن أعلق على ذلك بكلمة واحدة، وأحاول جاهدا، أن أترك عنده انطباعا بأن الأمر لا يعنيني.

عبد الغني يجلس أمامي على الأرض، يداه مصبوغتان بالحناء، والصبغ بالحناء دليل الزواج، لدرجة أن وجود رجل، خضبت يداه بالحناء، معناه، أن تقول له، بعد أن تصافحه مبروك يا عريس، عقبال البكاري. فيقول لك: إن شاء الله في حياتك، أو عقبالك.

عبد الغني صامت وأنا أيضا صامت، أعد في ذهني الساعات الباقية على رحيله، ولا أجرؤ على أن أطل بخيالي على الأيام القادمة من بعده. لقد انقطعت عن تدوين مذكراتي، ولا أكتب أي رسائل إلى أهلي بالمرة، ولم أتلق حتى الآن أية رسالة من هواة المراسلة، وكان من المفروض في العام الماضي، أن يرسل لي مدرس جديد، لفصل جديد، بعد أن انتقل تلاميذي إلى السنة الثانية، واعتذرت المنطقة لعدم وجود مدرسين.

وفي هذا العام أيضا، كررت المنطقة نفس الاعتذار، وبقيت وحدي "وبمجرد أن يعين مدرسون جدد، ستكون

مدرستك، من أول المدارس التي سننظر إلى طلبها بعين العطف والاعتبار" هكذا قالت المنطقة في آخر خطاب لها.

وعلاقاتي بالناس هنا، وصلت إلى مرحلة ميئوس منها. وعملي قد خلا من رائحة الحياة، من دفء الواقع اليومي، قد خلا حتى من العزاء الذي تقدمه لنا الحياة، في الثرثرة اليومية الفارغة، الحياة في العزبة يلفها سلام خريفي، هدوء لا طعم له، سكون أخرس، لدرجة أنك تتصور أن الحياة كانت على هذا الشكل منذ آلاف السنين، وستظل هكذا حتى قيام الساعة.

غير أن الأيام، قدمت شيئا جديدا.

لا أدري الآن كيف تمت الأمور. كنا نجلس معا، وكان الوقت شتاء، والدنيا ليل، وكنا نشرب الشاي، وعبد الغني يتلذذ بتدخين سيجارة، قال إنها معمرة.

قال عبد الغني:

- اللا أنت مالكش أصحاب خالص.

فزعت من سؤاله، سألته عن السبب، الذي دفعه إلى هذا الاعتقاد، قال لي: إنه لاحظ أنني منذ حضرت إلى هنا، وقد مضى على الآن ثلاثة أعوام، لم تصلني رسالة واحدة

باسمي، والمراسلة نصف المشاهدة كما يقولون، وما دمت متعلما، فلابد أن لي أصدقاء متعلمين، فما المانع إذا من أن تتراسل، أم أن هناك سببا آخر.

لم تصلني رسالة منذ ثلاثة أعوام كاملة.

تصورت أن ذلك قد ينتقص من قدري أمامه، وأمام وكيل مكتب البريد، وباقي الموظفين هنا، والذين ينفردون بأنفسهم عادة، أفكار خاصة، غريبة وساذجة، بيني وبينك، لم يتضح في ذهني، سوى تصور مشوش، مجرد محاولة، لاحتواء إحساس غامض، لما يجب أن أقوم به، ورحت أفكر. ليذهب عبد الغني، وليقف الليل عملاقا ثقيل الخطى، ولتمتد السماء من فوق القصر خالية كينابيع الحزن، ولتقل النقود، ولينتفض العالم كله من حولي، ولتضحك مني كل فتيات المنصورة، وليمتد الليل ليشمل كل وقت المنصورة.

سأقوم بتحرير خطابات باسمي.

يصل ويسلم ليد الأستاذ الكبير خلف الله الرتاوي خلف الله.

ناظر مدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة.

الرزيمات، بريد الكوم الأخضر، محافظة البحيرة.

الجمهورية العربية المتحدة.

وليكن ذلك كل شهر، كل أسبوع، أو كل يوم، ورحت، في هذا الصمت الليلي،أتخيل الغلاف، الخاتم الأسود، الكوم الأخضر، صادرا في، وكيل مكتب البريد ينادي باسمي، يا أستاذ خلف الله، يا حضرة الناظر، لك بوسطة، أسرع، استلم الخطاب، وليكن ذلك مسجلا.

الحقيقة أقول، أحسست بعد ذلك، بألم حاد، لامع براق، كلفحات الحر وقت الظهيرة أيام الصيف، أحسست بشيء دافئ يرتفع في صدري، وخيل إلى أن قلبي يتورم، يتمدد، يحتل كل تجويف الصدر، يحترق، لا يستطيع حتى أن يتنفس، يصعد دخان احتراقه، ينتشر في الصدر، تصبح له رائحة مميزة لها مذاق حبات الملح تحت الأضراس، ودسامة قطرات الدم الساخنة.

"يـوم لا وجود لـه علـى خريـطة الـعمر"

مضى علي الآن ثلاثة أعوام هنا.

قررت في الصباح أن أذهب إلى دمنهور؛ لمقابلة المدير العام. تركت في المدرسة طلب إجازة عارضة، وقلت لهم في المدرسة إنني ذاهب لمقابلة المدير العام بناء على طلبه. وفي دمنهور، سأطلب نقلي إلى المنصورة، ويجب أن أكون حازما في هذا الطلب، ركبت الأتوبيس الذاهب إلى دمنهور، وهذا لا يحدث كثيرا، ولسفري نظام صارم، يعرفه الناس هنا؛ ولهذا سئلت صباح اليوم من كل الذين قابلوني: إيه، خير إن شاء الله، وأغمغم من بين أضراسي بكلمات لا تعني شيئا محددا.

في دمنهور، وكان الوقت صباحا. أحسست أنني غريب وسط هذا الزحام، وفي هذه المدينة الصغيرة؟ خيل إلي أنني أفتقد لحظات الصمت المشحونة بالمرارة، أفتقد

الاتساع اللانهائي للحقول المغطاة بقشرة خضراء تتموج مع هبات النسيم. وكنت وأنا في الطريق إلى المديرية، قد حذفت ما تصورت أنه غير لائق أو خشن من الألفاظ، قلتها لنفسي بصوت لم يسمعه أحد سواي، رققت من صوتي، تركت ملامح وجهي المجهدة تسيل ليونة، تحسست جبيني، أدركت أن هذا الشهر كان شهرا كريما، جلست على مقهى صغير، شربت شايا، انتشرت في مذاقه رائحة المرارة.

وفي المديرية قابلت المدير، سلمت عليه.

- أنا يا أفندم، خلف الله البرتاوي.

تاهت الكلمات، جف الحلق، وكان في مكتبه أناس كثيرون، وعندما انتبه أخيرا. قلت ما أريده بكلمات لم أدرك معناه. انسالت حبات عرق باردة، غطت جبهتي، تحسست جيوبي، لم أجد منديلا أجفف به نقط العرق.

- (كويس، عايز تتنقل).

انداحت فترة صمت مستطيلة بيننا، حركت يدي وملامح وجهي في فرحة مفاجئة.

- أنت مدرس في مدرسة الرزيمات المشتركة.

- أيوه يا أفندم.

قال لي المدير، في المدرسة ذات الفصل الواحد، لـم أجبه، طرت فرحا، زغردت الفرحة في أعماقي. أخيرا لـم يذهب العمر هباء، لم تضع لحظات المعاناة والقلق والعذاب سدى، ها هنا، وفي هذا المكتب الأنيق، شخص ما، يعرف اسمي، ومدرستي البعيدة.

- طيب اتفضل أقعد يا ابني.

قال لي المدير العام: إن وجودي في الرزيمات فرصة ذهبية من أجل مستقبلي؛ ففي العام القادم، سيعين معي مدرس آخر، وسيصدر قرار وزاري بتعييني ناظرا بصفة رسمية، وبناء على ذلك سيصرف لي بدل تمثيل، وسأمنح درجة بشكل استثنائي، وهي صلاحيات لابد منها لي، كي أؤهل لوظيفة الناظر، وهي أولى خطواتي نحو مستقبل سعيد.

- ودا استثناء لم يحدث من قبل يا سيد خلف الله.

وجدت نفسي أسبح في عالم من الأحلام الوردية. للحظة، جزء صغير منها، لم أدرك حقيقة ما يقوله المدير العام. قال لي المدير العام إنه يمنحني فرصة قدرية لا تحدث في العمر الواحد مرتين، إنه علي في هذه اللحظة، أن أختار، إما أن أطلب النقل، وسيجيبني إلى طلبي فورا، وأنقل إلى

بلدتي المنصورة، وإما أن أظل في الرزيمات تحقيقا لمصلحتي، ومراعاة لمستقبلي، طلب مني المدير العام أن أقرر ما أراه مناسبا لي فورا، شعرت على الفور أنه يقف خلفي تماما، جدار سميك، هائل، يفصل ما بين ما مضى من أيام العمر، عن هذه اللحظة، بدت لي اللحظات المقبلة كفتحة سحرية ستقبل منها أيام السعادة. أحسست بنوع من البلادة، بلادة ممزوجة برعشة غريبة، والحقيقة أنني شخص متردد، كثير المخاوف، نادرا ما أتخذ أي قرار بخصوص أي شيء، بل أرجئ كافة الأشياء، وأتركها معلقة في الفراغ؛ حتى تحل من نفسها. غير أنني هذه المرة، وجدت نفسي وجها لوجه أمام مشكلة، وكان علي أن أتخذ موقفا محددا، وهذا ما لم أتعوده، وقد كان.

لا أستطيع أن أقول أنني فكرت في الموضوع، فالذي حدث، أن أول ما طرأ على ذهني المتعب، أول الأشياء التي تجسدت من خلال تداخل الأشياء الضبابي في ذهني، اتخذته على أنه القرار الأخير.

- خلاص يا أفندم، أفضل البقاء في الرزيمات.
- برافو يا أستاذ خلف الله، هيه دي الحكمة.

وفي طريق عودتي، كانت رائحة التراب في أنفي لزجة، غفوت، وصحوت من غفوتي، وما كان يعذبني أن ما فعلته في هذا اليوم، لم يكن قادرا على إسعادي، بل كنت أدرك طوال الطريق، أنني قد خطوت في طريق لا عودة منه، وأن الباب الذي أوصدته خلفي، باب عملاق، يبدأ أوله في الأرض، وينتهي آخره عن السماء، وأنه لم يعد أمامي من الآن إلا أن أواصل الطريق.

وعندما استدار الأتوبيس في شارع المعهد الديني بدمنهور، احتويت المدينة في أعماقي بنظرة حانية، واستقرت المرئيات في صميم نفسي، واستراحت في خيالي، وفزعت لدرجة الهلع، عندما تصورت، مجرد تصور، أنني لن أرى هذه المدينة بعد ذلك أبدا.

" وفيه يزف السيد/ خلف الله البرتـاوي خلـف الله، دونما أي شكل من أشكال الاحترام والتبجيل، إلى نفسه".

أربعة أعوام كاملة مرت علي هنا.

ياه، العمر يتسرب ببطء شديد، غير أن ما مضى من العمر كثير كثير، أربعة أعوام كاملة مرت، لو ذهبت إلى المنصورة الآن، لبدت لعيني غريبة تماما، لبدت البيوت ضئيلة، فقيرة، يعلوها غبار تفوح منه رائحة مرور الزمن، الشوارع غير مستقيمة، والحارات ضيقة، وأبدو أنا عملاقا كبيرا.

أربعة أعوام كاملة مرت.

ضاعت مني، خلالها، الفرصة الوحيدة للخلاص من هذه الغربة، وبعد ضياع هذه الفرصة، ضاع كل شيء.

أشياء كثيرة حدثت خلال هذه المدة، تتحول المرأة الجميلة، الشابة، إلى عجوز شمطاء، يولد أطفال صغار، يكبر الصبية، يصبح لهم الآن صديقات يسرن معهم ساعة العصاري الندية، تهدم أحياء بأكملها، تبنى منازل تبلغ حد الروعة في مناطق خربة، يموت بعض الأحباء، يوارون في التراب، يصبحون ذكرى باهتة معتمة، تنغرس في زاوية من النفس، يمرض الأصحاء، يرقق المرض نفوسهم، يسحب

منهم دفء الحياة. وعندما يتذكر الأحياء من ماتوا، يضحكون، يقهقهون، وكأن الأمر لا يعنيهم.

حدثت أمور كثيرة خلال هذه المدة، ترهلت أمي، شاخت، أبيض شعر أبي، تساقطت أسنانه، كل هذا يحدث وأنا هنا، جالس في مكاني، والشيء المؤكد، أنه لم يحدث شيء مالي طوال هذه المدة، نفس الجلسة هي هي، لم تتغير، وأؤكد أنني، منذ أربعة سنوات كاملة، في نفس الساعة، وفي نفس هذا المكان، وخلف هذه النافذة نفسها، كنت أجلس هكذا، أحدق في الفراغ، وأتحسس العتمة بناظري، وأحصي أمورا تافهة، وأنتظر مجيء الخلاص، من فتحة الكون السحرية.

- 1 -

أصبحت كتابة الرسائل هي كل اهتماماتي، لدرجة أنني وأنا سائر في حواري العزبة، بمجرد أن أشاهد أي شيء، أفكر فيه، وأعده، كي يكون موضوع رسالتي القادمة، ولقد وجدت في ذلك ملاذا لي، خاصة بعد رحيل عبد الغني، فلقد تزوج وعاش مع زوجته وأمه وأختيه في حوش عيسى، وعرض علي في بداية الأمر، أن أعيش معه هناك، ولكني اعتذرت. وفي الصباح من كل يوم، يحضر عبد الغني في السابعة، يفتح المدرسة، ينظفها، وفي الثامنة يدق الجرس، ويبدأ اليوم المدرسي، وما أن تأتي الساعة الثانية بعد الظهر، حتى ينتهي كل شيء، ويعود عبد الغني إلى حوش عيسى، وكان عبد الغني قد اشترى دارجة نصر، نصف عمر، كي يركبها في ذهابه وفي عودته، وحاول أن يستدين مني مبلغ ثلاثة جنيهات؛ كي يشتري الدراجة فوري، فاعتذرت له بكلمات مائعة المعنى، فاشتراها بالتقسيط.

وكان رحيل عبد الغني، معناه أن طعامي بدأ يسوء، وأصبحت لا أتناوله بشكل منتظم، سوى وجبة الإفطار التي يحضرها عبد الغني من حوش عيسى، ووجودي بمفردي في القصر، بعد الظهر، جعلني ازداد إحساسا بالزمن. وفي كل صباح، كنت أهنئ نفسي بالميلاد الجديد، بمعنى أن يصحو الإنسان على يوم آخر.

وشيئا فشيئا، أصبح الكل هنا، يدرك هذه الحقيقة، ما أن ينتصف الليل، ولحظة انتصاف الليل ستظل منطقة مجهولة، لم يكتشفها أحد، ما أن ينتصف الليل؛ حتى يشاهد أهل العزبة، أن الساكن الوحيد، بقصر الأميرة سميحة، الذي هو أنا، حمل لمبته، نزل من الدور العلوي إن كان الوقت صيفا، أو أتجه إلى مكتب أن كان الوقت شتاء، وأظل هناك، أكتب. "عزيزي خلف الله البرتاوي: أشتاق إليك، أريد أن أرى وجهك من خلال سطورك، أكتب أشياء رائعة، إن حياتي يا حبيبي، تكتسب معناها الآن فقط، وأدرك، من خلال حبي لك، وعلاقتي بك، إن أيامي التي مضت لم تكن هباء، وإن كل اللحظات التي مضت كانت تمهيدا لتعرفي بك".

وفي كل ليلة، لا أدري بالتحديد متى أصعد إلى حجرتي، غفير الدرك المعين لحراسة المدرسة، هو الذي يذكرني، عادة، بموعد نومي، والغفير يعرف التوقيت. من خلال علامات ليلية، في منتصف الليل، تمر طائرة متجهة إلى الإسكندرية، لحظة مولد الفجر على صفحة الليلة، تقف فوق العزبة النجمة أم ديل، أما قبل شروق الشمس بساعة، فيأتي الكروان، من ناحية الكوم الأخضر، مرسلا صوته الشجي الجميل، ويكون لون السماء، حينئذ، مشربا بزرقة خفيفة.

الساعة التاسعة صباحا.

مجيء هذه الساعة يعني أن أسمع جرس دراجة وكيل مكتب البريد. يتوقف أمام المدرسة.

- يا حضرة الناظر، لك بوسطة.

تسرع دقات القلب، يحمر وجهي خجلًا، يقف شعر رأسي، تسري في أعطافي نشوة غامضة، رسالة إلي، خطاب، ما زلت حيا، أجري، أقفز درجات السلم، العصا في يدي اليمنى، والممسحة في اليد اليسرى، ما زلت قادرا على الإحساس بما يحسه الناس، آخذ منه الرسالة، أتحسسها.

- (متشكرين يا وزير المواصلات).
- أي خدمة يا إكسلانس.

أفتح الرسالة، أقرؤها. وعلى الرغم من أنني كاتبها، فإنني أنظر في الرسالة. وفي طابع البريد على الظرف الخارجي، واسم المرسل منه، وتبدو على وجهي البليد، أقصى درجات الدهشة.

قال لي وكيل مكتب البريد، ذات مرة، أنه يستحسن أن أرسل أحد التلاميذ، كي يأخذ هذه الرسائل من مكتب البريد توفيرا للمجهود، حدقت فيه، رمشت عيناي في دهشة، اتسعت مساحة البياض فيهما، دعني، أرجوك، أعيش هذه اللحظة، أنها أغلى ما في الحياة، هي العزاء والخلاص وفدية العمر الحزين، هي الدليل الوحيد على أنني ما زلت حيا، وإن الدنيا ما زالت بخير، هذه الرسائل تؤكد لي أن الأربعة والعشرين ساعة التي مضت، بكل ما فيها تسمى الأمس، وإن الأربعة والعشرين ساعة القادمة من رحم المجهول، تسمى الغد، وإننا نوجد الآن في الحاضر. اشتريت في آخر مرة، من المنصورة، وكان ذلك منذ زمان مضى، كتابا، عبارة عن مجموعة من الرسائل، وعكفت عليه، قرأته، ونقلته في

كراسة من عندي، حفظت أكثر سطوره، أبعث إليك بتحية صافية، صادرة من أعماق قلبي المملوء إيمانا بحبك، وإجلالا لشخصك الكريم، أما بعد.

ذات ليلة، تصورت أن وكيل مكتب البريد، قد يفكر في فتح هذه الرسائل، خاصة وأن كل الرسائل، كانت موجهة إلى الأستاذ خلف الله البرتاوي خلف الله، وموقعه في نهايتها بإمضاء المخلص، خلف الله البرتاوي خلف الله، وبعد تفكير طويل، والتفكير لم يكن من عادتي من قبل، اهتديت إلى حل سليم، وهو أن أوقع هذه الرسائل بأسماء مختلفة، وهي أسماء من عندي بالطبع، "مع حبي وإخلاصي، حبيبتك سلوى. مع أسمى ما أملك يا معبودي، عطيات، يا خلف الله، يا أعز حبيب، لك كل ما أملك، سوزان.

- 2 -

كنت قد قررت لنفسي، ذات ليلة شتوية، بعد زواج عبد الغني، أن أجعل من فرديتي لقبا ثقيلا، شيئا كالأحكام الفطرية، تلك التي تحمل في بداخلها مبررها، تماما، كالأحكام القدرية الصارمة.

وفي منتصف كل ليلة، تمر طائرة منتصف الليل، أفتح حدقتي عن آخرهما، أمسك قلبي من الفرحة، أحاول، بعين الخيال، أن أعيش ما يحدث بداخل الطائرة "بعد قليل" سيداتي سادتي، نهبط في مطار الإسكندرية، شكرا" ويكون الجو مثقلا بالدخان، ورائحة الخمر، النساء الجميلات، القادمات من بلاد الوهم والأسطورة، بلاد الثلج الأبيض المندوف، بلاد الجنس المباح، يرطنون بكل اللغات.

أسمع صوت الطائرة، أخف إلى زجاج النافذة، انظر من خلفه، أتعبقها حتى تغيب عن الأنظار، وأبقى في مكاني، أحلم، أعيش أحلاما سعيدة، أسافر إلى بلاد الثلج والضباب، حيث المدن تبدو شوارعها كأنها الأنهار الليلية، إلى بلاد

العيون الزرق، والحياة المغسولة بالشهد والحنين، أجلس في داخل الطائرة.

- باي، باي.

- سيداتي، سادتي، نحن الآن على ارتفاع.

وقي قلب الطائرة، من خلف زجاج نافذتها المستديرة، أجلس، أتغنى بصوت خافت، بمقطع صغيرة من أغنية حب قديمة، تنظر إلى، الجالسة إلى جواري، في عيونها ينداح تساؤل حاد، عيونها في زرقة السماء الصافية، ملمس جلدها الخارجي في نعومة الحرير، أحكي لها حكاية حب حزينة الختام.

- (كان يو سبيك إنجلش؟).

وأتحدث، أقول كلمات مبللة بالأسى، حكاية الأشواق والأحزان، وتقيم الرغبة جسرا مرعوشًا بيني وبينها، وأحتويها في حبة القلب، أضاجعها بكل ومضات الحياة، بكل رعشات الوجود الربيعية.

غير أن هذه الأحلام، كانت تعمق عندي، كل ليلة، ذلك الإحساس السرطاني الخبيث، الإحساس بلا جدوى ما أقوم به، حتى الخطابات، ملاذي الوحيد، كانت تبدو كشيء لا

قيمة له، محاولة هروبية للضحك على النفس، وبعد مرور الطائرة، تعود الأشياء إلى سحنتها الأولى، وأحلم، أتزوج وأنجب أطفالا في حلاوة الشهد، ثم أصحو في نهاية الأمر على قسوة الواقع.

بدأت أكتب لنفسي خطابات، تحمل أسماء فتيات، وبأسماء تثير الخيال، وكنت بعد قراءة أية رسالة، أتركها أمام عبد الغني، على مكتبي في الصالة، ثم أتصنع الذهاب إلى الفصل، أو دورة المياه، أو الصعود إلى حجرة نومي، وأعود، أجري إليه، أحاول أن أقرأ ملامح وجهه، أتفرس فيه، وعندما كان يصمت، ويبدو أنه لم يقرأ الرسالة، كانت تصيبني خيبة أمل، لدرجة أنني افتعلت معه ذات مرة معركة، وحذرته من قراءة أوراقي الخاصة، مع أنه لم يفعل ذلك.

وفي يوم ما، حمل إلى عبد الغني، إحدى هذه الرسائل، قائلا وهو يعطيها لي، أنه لاحظ أن الخط المدونة به الرسالة، يشبه خطي، بلعت ريقي، أحسست بفتور مفاجئ، وفي نفس الليلة، كتبت رسائلي بيدي اليسرى، ولم يكن يبدو الخط كأنه خطي.

واتجهت في تدوين رسائلي، إلى أن أكتب كل ما يظهرني بمظهر الشخص الهام، فمثلا، كتبت إلى نفسي، رسالة باسم والدي، يطلب مني فيها الذهاب إليهم؛ لوجود مشاكل عندهم، يعجز هو عن حلها "فأنت أملنا الوحيد يا ابني العزيز، ولا يمكن أن تتصور، ولو للحظة واحدة كيف كنا سنعيش لحظة واحدة بدونك. اسم المرسل منه: البرتاوي خلف الله، تاجر بالجملة والقطاعي بسوق المنصورة العام".

وفي خطابات الفتيات، أعني المرسلة لي من فتيات، كنت أكتب فيها أحلى الكلمات، كلمات غزل قد تصل أحيانا إلى درجة العهر، كانت الكلمات تتغنى بفحولتي الجنسية، وحلاوة جسدي، ومدى رغبة صاحبة الرسالة في، وفي بعض هذه الرسائل، كنت أشير إلى ليال حمراء، مترعة بالوصال. وأحيانا، كنت أستبقي وكيل مكتب البريد معي؛ حتى نقرأ هذه الرسائل معا، وكانت سعادتي تصل إلى قمتها، عندما كنت أشاهده يستحلب ريقه، وتتسع عيناه، ويسألني عن النساء والجنس، وكنت أجيبه بكلمات مائعة لا تحمل معنى النفي أو الإيجاب.

وأصبحت قراءة رسائلي معا، أنا ووكيل مكتب البريد، من أحب عاداتنا، وأصبحت سعادتي، في أن أشاهده بنفسي مبهورا، ينظر إلي على أنني رجل مجرب، أعرف كل شيء، وأفعل كل شيء، كنت أحكي له عن مغامرات وهمية، وكان يصدقني، ولا يعلق على أحاديثي إلا بصيحات مبتورة، كأن يقول: "ما شاء الله"، أو يقول: "يا سلام" غير أن هذه العلاقة لم يكتب لها الدوام، بدأت أقرأ في عينيه أولى علامات الشك، أسئلة بسيطة كان يطرحها خلال حكاياتا، معبرا بملامح وجهه عن حالة رفض، وكنت أحاول في كلمات متلعثمة أن أجيبه، أن أشرح كل الأمور، غير أن الكذاب كثيرا ما ينسى في أغلب الأحيان أنه ينسى، وتلك قيمة الكذب، فكنت أحكي الأشياء، وفي اليوم التالي، أحكي نقيضها، وفي اليوم الثالث، أعود فأكذبها من أساسها.

- إنما يعني أنت نسيت حكاية البنت الإسكندرانية.

- بنت مين؟

- آه. البنت بتاعت غيط العنب. اللي اسمها.

وأحاول أن أتصنع ضحكة صفراء، وتبدأ قطرة عرق باردة في الانزلاق على جبهتي ببطء شديد، وأحاول جاهدا

أن أغير الموضوع، ولكن كل شيء فسد تماما. وكانت نهاية علاقتي به، أن شاهدني ذات يوم، وكان الوقت مساء، فضحك عاليا وغمز يد الواقف بجواره، وكان من شبان العزبة،وسلم علي :

- أهلا أبو لمعة.

وتصنعت عدم الاهتمام، وسلمت عليه ولكنه بعد قليل، سألني:

- وإيه أخبار نسوانك، قصدي المعجبات.

وضحكوا جميعا، فرفع بعضهم بأصابعه في الهواء، استلقى البعض الآخر على الأرض، تمايلت رءوسهم، بلعت هزيمتي، ترجعت خجلي، وانسال عرق له رائحة الجلود البشرية، وانصرفت.

وفي هدأة الليل الساجية، والظلام يخفي حقائق الأشياء في القصر، تصورت أنني عينت رئيسا لمجلس المدينة، وجلست على كرسي العرش العالي، واستدعيت هذا الموظف الصغير، وعنفته، ثم عفوت عنه في نهاية الأمر، ونمت بعد هذا، راضيا، هادئ البال.

- 3 -

أنا شخص ضعيف بطبعي تجاه الأشياء.

وما يصفني به الناس هنا، من أنني صبور، ورجل يعتمد عليه، ليس صبرا في حقيقة الأمر؛ إنه نوع من الرضوخ للعالم الخارجي والناس والأشياء. ومن أهم مظاهر هذا الرضوخ. أن هناك بعض عادات تستعبدني أحيانا، وما أن يمضي الوقت، حتى أهجر هذه العادات، التي كانت محببة إلى نفسي وقتا ما.

بدأت، في فترة ما، وكان ذلك عقب أن أنتهي من كتابة خطاباتي وإعادة تمثيل يومي من جديد، ويكون الفجر قد بدأ يثقب رداء الليل، وتكون العودة من بحار الهموم والأحزان، تنتشر زرقة خفيفة وتلف الأشياء، وتتكحل العزبة والأشجار بقطرات من الضوء الرمادي، أخرج من القصر، أتمشى، في تلك الساعة الشجية، الساعة التي تشهد مولد الفجر على صفحة السماء. وفي الطرقات الخالية تماما، أحدث نفسي، أحرك يدي، أضحك، وأحادث أناسا في الخيال. وفي هذه الساعة الرمادية الموحشة، تكون الحياة والأشجار

والنباتات والناس وصلت إلى أقصى درجات السكون، قبل أن تبدأ الحياة دورة جديدة، في حياة العزبة، غير أنني هجرت هذه العادة، عندما حضر لي عبد الغني ذات صباح، وأفهمني أن الناس في العزبة يقولون إنني قد خاويت جنية من بنات الجان، في الترعة القبلية، وإنني أذهب إليها فجر كل يوم، وهناك تنزل بي إلى أعماق الترعة. وفي قصرها المشيد تحت الماء، أجتمع بها، أغمس خبزي في زيتها، أرتشف من شفتيها الشهد، وأستحم وأعود.

قال لي عبد الغني، وفي صوته رائحة انكسار: إن إمام المسجد، أقسم للجميع، برحمة والده، وقبر الحسين، إنني لو امتنعت في يوم ما، عن الذهاب إليها، لحضرت هي إلي، وحرقت القصر، وجننت، وذهبت إلى السرايا الصفراء، حولت الأمر إلى فكاهة. قلت لعبد الغني: إن لون القصر أصفر، وإنه في حد ذاته خانكة كبيرة.

وفي الليل، لم أكن أخرج، كنت أتصور نفسي عمدة، أو رئيس مجلس المدينة، أو أحد المشهورين، وكنت أجلس على كرسي، بالتحديد على كرسي العرش العالي، واضعا قدما على قدم. آمرا، ناهيا، موبخا، ملقيا بالأحكام على

الناس، وكنت أحضر من الكوم الأخضر، كميات كبيرة من المأكولات، وأقوم بعمل وليمة فاخرة، أدعو إليها كثيرا من الناس الذين مروا في حياتي، أنظم المائدة، وأرسل إلى منزل عمي فتح الله، ومنزل شيخ البلد، أستلف السكاكين والفوط، والأطباق والشوك والملاعق وأطقم الشاي، وأنظم كل شيء، ثم أصعد إلى حجرتي، وأرتدي بدلتي الكاملة، وأتعطر، وأنزل، ويكون ذلك في العاشرة تماما. أدخل حجرة الطعام، يقف الجميع، يدفعون الكراسي إلى الخلف، ينبعث صوت يؤنس وحشة الليالي في القصر، ويظلون وقوفا حتى أتصدر المائدة، وأجلس، وأصدر تعليماتي المشددة إلى الخدم والسفرجية، وأشير بيدي.

- تفضلوا بالجلوس يا سادة.

وأبدأ في توزيع الطعام عليهم.

- جعله الله منزلا عامرا.

وأصحو خلال الأكل على حقيقة دامعة، إنني أجلس بمفردي، وأصناف الأكل كما هي، وكان ذلك يرهقني ماديا، لدرجة أن ذلك كان يحدث نادرا، وكنت قبل القيام به بشهور أعمل حسابه، وأدخر له ما وسعني الادخار.

وفي الصباح، كان عبد الغني، وهو ينظف الحجرات، يفاجأ ببقايا الطعام، وكان يسألني عن ذلك، فأقول له، وأنا أرتدي ملابسي، مظهرا اللامبالاة، وعدم الاهتمام:

- أنا كنت عازم ناس.

ويصمت عبد الغني، وفي مرة لمحته يبتسم، ويداري وجهه بيديه. وينصرف من الحجرة مسرعا، ولكني أظهرت عدم الاهتمام بذلك، ولم أسأله عن السبب في ضحكه.

وفي الأيام الأخيرة، بدأت صحتي تهل، واتسعت على ملابسي، وعندما كنت أحاول النظر إلى الأشياء، في وهج الشمس، كنت أفاجأ بأشياء تبرق في الجو، وتلف الدنيا كلها في دائرة، مركزها أنا؛ حتى فقدت القدرة على التمييز، وأصبحت أدوخ بسرعة لأي مجهود أقوم به، ويغطي جسمي بعرق غزير، حتى وأنا جالس أمام القصر، وعندما كنت أصحو في الصباح، كانت تنبعث من فمي رائحة غريبة، وفقدت الأشياء شكلها الحقيقي، فأضحت ذكرياتي نوعا من الهلوسة، وتداخلت الماضي والحاضر والمستقبل.

وأصبح كل وجودي متركزا في أعماق قلبي المحموم، أصبح عقلي مسرحا يجري عليه كل شيء.

وأصحبت رسائلي هي كل عالمي، لدرجة أن وكيل مكتب البريد، نبهني ذات صباح لأهمية هذه الرسائل، وسألني عن مصيرها بعد قراءتها، فقلت له باستهانة أنني أمزقها، فأنا لا أحب أن أعيش في دفتر خانة، أو أرشف حياتي، أبدى أسفه العميق، وأبدى في نفس الوقت استعداده للقيام بحفظها في ملف خاص، وابتدأنا من ذلك التاريخ نحفظ كل الرسائل في ملف فبر، أخذته من عهدة المدرسة، ودون عليه وكيل مكتب البريد، بالحبر الشيني الأسود "رحلة العمر" وكان يحدث أحيانا، أن يأتي إلي في ليالي الشتاء، طالبا مني الدوسيه لقراءة رسالة منه، وكنت أعطيه إياه بشك وريبة.

ورغم هذا، لم تصف الأمور بيننا بعد ما حدث منه معي، وكان من الممكن أن نصير أصدقاء، ولكن الظروف حالت دون ذلك. كان يأخذ مني الدوسيه، أطلب منه أن يحافظ عليه، والغريب إننا معا، رغم كل هذا، لم يعرف أي منا الآخر، فكان نادرا ما ينظر أحدنا إلى الآخر، ولم يحدث أن تحدثنا مرة واحدة عن حياة أي منا، أو أسرته، أو ظروفه، لقد تلاقينا أنا وهو، في ظروف قاسية، وافترقنا بعد ذلك ونحن غرباء عن بعضنا البعض، بل ولابد أن أعترف

الآن، خجولا، بأنني لم أعرف إلا اسمه الأول، ولم أعرف عنه فيما بعد أي شيء.

وهنا مات عبد الغني.

ومر وقت طويل، قبل أن تعين المنطقة فراشا آخر بدلا منه، إجراءات لابد منها إعلان في الصحف المحلية، مسابقة، كشف هيئة، مسوغات تعيين، وخلال هذا، استعجلت المنطقة ثلاث مرات، وردت علي بأن هذه الإجراءات لابد منها كي يكون التعيين قانونيا.

وفي فصل الخريف من كل عام، تتساقط أوراق الأشجار، تضحي صفراء اللون، وعندما أتمشى ساعة الغروب، على الطريق الموصل إلى محطة الأتوبيس بمفردي، تثير الأوراق الجافة إلى القصر خشخشة مترعة بالأسى، وفي الليل عند عودتي إلى القصر، تبدو فروع الأشجار، التي تساقط الورق عنها، كأنها تصاوير الرعب.

وفي أيام الجفاف من كل عام، تبدو العزبة جرداء، حتى الأرض لا أشم فيها ساعة العصاري رائحة الخصوبة، وتبدو الترع والقنوات لا يتصاعد منها، ساعة الشروق، ذلك البخار الأبيض المألوف، وتمر الأيام، وأبحث عن رائحة

قطعة أرض مروية حديثا، فلا أجد إلا الجفاف الذي يتحدد بمذاق حبات التراب الرمادية تحت الأضراس.

وينسحب هذا الجفاف على كل شيء في العزبة، فينقطع اللبن الحليب صباحا وتهزل المواشي، ولا أسمع، في لحظة انتصاف الليل، سوى أنين ساقية تدور على البعد.

وفي فصل الخريف من عام، تطول أيام الجفاف، وأشاهد الشقوق الكبيرة في الأراضي الواسعة، أو أرضية الترع الجافة، وقد تلونت بلون الجير، ينكمش القلب، يذوي كأوراق الشجر الجافة، يهوي حتى القاع، ويبدو القصر من خلال آلاف الأفرع العارية من الورق المحيطة به، كأنه نافذة سجين، محاطا بآلاف الأسلاك. أنظر إلى القصر من بعيد، أدرك أنني في هذه الليلة، إن دخلت القصر، لن أخرج منه أبدا إلا ملفوفا في كفن أبيض، وعيناي مغمضتان، ويداي مستويتان بجوار جسمي. والقلب مشقوق بسكين، غير أنه لم ينزف قطرة دم واحدة.

وتبدو لعيني الأشجار العارية، رصاصية اللون، قاحلة، وينغرس لونها الرمادي الموحش في أعماق نفسي،

وأقسم لنفسي، أن هذا الخريف أبدي. لن يأتي بعده شتاء ولا ربيع قط.

- 4 -

الأشياء التي بدأت كنوع من اللعب والتسلية، أصبحت الآن قيدا ثقيلا على نفسي، فالرسائل أصبحت جزءا من واقعي اليومي، رغم أنها بدأت أكذوبة. أصبحت أعيد تكوين يومي، ثرثرة حياتي، ما يحدث في العزبة، بحيث يوافق في نهاية الأمر ما أكتبه لنفسي، وعطيات، ما أحببت سواها، حبا نابعا من الأعماق، وإن لم أكلمها سوى مرة واحدة، أحببتها بكل قطرة من دمي، بكل ذرة من لحمي.

ومن العجيب أن وكيل مكتب البريد، قد أحبها هو الآخر، وكلم والدها، وهو الآن على وشك إعلان الخطوبة بشكل رسمي، ولا يزعجني الآن إلا أنه قرأ، ذات مرة، إحدى الرسائل التي كنت أكتبها لنفسي، موقعة من، "من أحبتك إلى الأبد، المخلصة، عطيات".

وفي هدأة الليل، كنت أحضر عطيات، كان يكفي أن أمر أمام النافذة القبلية، التي تواجه منزلها، حاملا اللمبة، مرتين. فتحضر، وكانت عطيات تنام معي. على سريري المكون من دكك خشبية، وأجعلها تشتم وكيل مكتب البريد،

وأهددها بأنني سأتزوج من سواها وتبكي، تتوسل بكلمات ضعيفة. وأعدها بأنني سأنظر في الموضوع.

وفي لحظة انتصاف الليل، أعد عطيات بأنني سأنفذ ما طلبته مني، سأذهب في صباح الغد إلى الحلاق، أحلق شعري، أسوى شاربي، وسأصلح من ملابسي، ويمضي النهار بطيء الخطى، أعد الدقائق في انتظار مجيء الليل. والليل يسلمني لبحار الوهم ومتاهات الجنس. وفي كل ليلة.

أقسم لعطيات أنني في الصباح الباكر، سأذهب إلى منزلها، أجلس مع والدها، أشرب الشاي "أنا يسعدني يا شيخ البلد، أن أطلب يد كريمتكم عطيات".

وقبل أن أنام، في كل ليلة، ويكون ذلك قبل الفجر مباشرة، ويكون معي آخر خطابٍ كتبته لنفسي، أجلس على السرير، أناديها.

- تعالي يا عطيات علشان ننام.

أتمدد، تحضر، تنام إلى جواري، آخذها في أحضاني، أقبلها، أتحسس لحمها الطري، أكتشف أنها لم ترتد

قميص النوم الحريري الذي اشتريته لها(٢١)، أعاتبها،

أحضنها، أشرب قطرات عرقها، أتذوقها على مهل.

وفي الصباح، رغم كل شيء، أصر على أن أستحم،

وتصل نشوتي إلى أقصاها عندما أتصور ما سيدور بخلد من يسمع قطرات الدش تنسال على جسدي، نسيت المنصورة، أمي، أبي، ولم أكن أسافر إلا نادرا، كنت أرسل لهم المطلوب أن أرسلته بحوالة بريدية، ولم ألاحظ من ناحيتهم تضايقا، أو شوقا لرؤياي، فسكت.

وفي وجبة العشاء، كنت أحضر طعاما لاثنين،

وتجلس عطيات قبالتي، إيه رأيك في الجبنة البيضاء "دي عايزة بيرة" من بكرة إن شاء الله، من ناحية السجاير لا يا روحي، أنا ما أحبش النسوان اللي بتدخن.

تداخلت الأمور أخيرا.

أصبحت معي امرأة، تخصني وحدي. امرأة جميلة لا يراها أحد.

---

٢١) بالفعل، أرسلت من اشترى لي قميص نوم من الحرير من دمنهور، وطبقته، ووضعته في حقيبة ملابسي، وكنت في آخر كل ليلة أخرجه، أضعه على السرير بجواري تماما.

ابتعدت عن الناس تماما. وكنت ألاحظ نظرات الدهشة في عيون الناس هنا عند رؤيتهم لي. وعندما كنت أمر عليهم، كنت ألمحهم بطرف عيني، يتغامزون علي، يشيرون إلي، ولكن ذلك لم يكن يعنيني، بل لاحظت أن المرأة التي كانت تغسل ملابسي، وتملأ لي المياه، وتنظف حجرتي، كانت تحضر مسرعة، وتسير ببطء وهي تنظر خلفها، ولكني قررت أنني خضعت للناس بما فيه الكفاية، وكفى، لقد آن الأوان كي أفعل شيئا ما.

وواجهت الأمر بلذة وشجاعة.

أهملت ملابسي، أطلقت لحيتي، وبدا الفراش الجديد، يقف على بعد واضح مني، وأصبحت تصرفاته تجاهي تشي بأقصى درجات الخوف مني، حتى التلاميذ انصرفوا في نهاية الأمر عني، وأهل العزبة من الرجال، نادرا ما كانوا يوجهون إلي السلام. وحدث بعد ذلك أنني لاحظت أنني في كل مرة، كنت أنزل إلى حواري العزبة، ويكون ذلك وقت الغروب، أن الأطفال، وبعضهم كانوا تلاميذ عندي، كانوا يتجمعون حولي، يسيرون خلفي، تزداد كثافتهم، يكثرون، يسيرون، أنظر إليهم في دهشة. يقولون كلمات بأصوات

واطئة، ألمح في أياديهم قطعا من الطوب. تطل النسوة من الطيقان والأبواب الموارية، ويظل الأمر هكذا، إلى أن يحضر أحد الرجال، فيطرد الأطفال، ويتعقبهم حتى يبتعدوا تماما.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وتتحول الهمهمات إلى كلمات، والكلمات إلى قصص وحكايا.

سيعقد قران عطيات الليلة.

والعريس هو وكيل مكتب البريد.

في هذا المساء، كنت قد قررت أن أنهي كل شيء. أحضرت سكينا أبيض حادا، حميته على حديد السلم بعناية، عند حضور عطيات ليلا، لابد أن يتم كل شيء. كنت قد لاحظت عند انصرافها من عندي ليلة الأمس انتفاخ بطنها. وعندما تأتي هذه الليلة، أستقبلها، أجردها من ملابسها، تجوس يدي خلال جسدها الأبيض البض، تتأوه، أجمع في كفي غدائر الشعر الليلية، أغرس شفتي بين شفتيها، أستحلب لعابها، على مهل، تقف أمامي عارية، أمر بأنامل أصابعي على أجزاء جسمها. عطيات، يا ينبوع الحزن، ومتاهة

الأسى. بعد أن أنتهي منها، أمسك بالسكين، وتكون نائمة على ظهرها، ينغرس السكين في صدرها، بالتحديد بين النهدين، تطير نقاط الدم الساخنة.

- يا حبيبي يا خلف الله.

تنغرس السكين قليلا، ينتفض الجسد انتفاضة الموت. تنسال نقاط الدم الساخنة، تنتشر على الجسد الأبيض، تتأوه. تزحف على الجسد الرائع برودة ثلجية. تنسحب منه حرارة الحياة. تذبل نظرات عينيها الوادعتين. أجلس بجوارها.

بعد قليل ينتصف الليل.

بجواري حبل، وعلبة كبريت، وكميات من الجاز. وأدرك، في هدأة الليل وأنا أصعد إلى حجرتي، بانتظار حضور عطيات، أن أيامي التي مضت لم تكن هباء، وأن كل شيء يهون في سبيل هذه الليلة.

لقد مضت أيام، في انتظار مجيء شيء له حلاوة الأمل، وطزاجة الأشياء التي نقضي العمر في انتظارها. غير أنها لا تجيء أبدا، وخلال تلك الأيام، كنت أنتظر قدوم الأمل والخلاص، من تلك الفتحة السحرية التي تقع خلف الفضاء الخريفي الشاحب.

وفي الليل، أجلس، أتحسر على الفرصة الوحيدة التي ضاعت، بددتها كالسفيه في أسواق المقامرة، وجلست أواجه الحياة بلا رأسمال.

وتمضي اللحظات، مشحونة بالقلق والانتظار، انتظار الحظ السعيد الذي ستأتي به الأيام، غير أن الأيام لا تأتي إلا باليأس، وشيئا فشيئا، بدأت الأماني تذوي في النفس، وفي نهاية الأمر، كفنت هذه الأحلام في أكفان بيضاء، ودفنتها في حبة القلب.

لقد خدعت من قبل، وكفاني خديعة، فأنا لا أريد أن أخدع من جديد. نضب القلب، وجف ماء الحياة، وبدأ شتاء العمر الطويل، شتاء جاف يابس، لا تمطر فيه السماء ولا قطرة واحدة.

الليل ينتصف الآن، وعطيات لم تحضر بعد.

وهأنذا الآن، خلف البرتاوي خلف الله، أجر الحياة جرا بطيئا، أعيش في وضح النهارات وعند المساء، وساعة حلول الفجر الرمادي الموحش، وفي ضوء القمر الشتوي المبتور الوجه، وتحت أشعة النجوم الهادئة، المبعثرة على

صفحة الليل، في انتظار حدوث المعجزة، مع مجيء الربيع القادم.

حقيقة، أنا حزين، وكل شيء حولي هنا في الرزيمات، لا يجعلني آمل في شيء ما ألبتة، غير أن الناس القدماء هنا، أكدوا لي، من قبل، أن هناك أياما سعيدة قد تأتي مع الأيام القادمة، بعد هذا الشتاء الطويل.

لكن كل شيء، يؤكد لي، أنني لن أرى الربيع القادم بعيني هاتين أبدا.